المملكة العربية السعودية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مجلة
كلية اللغة العربية
والعلوم الاجتماعية

العدد الخامس

١٣٩٥هـ ١٩٧٥م

دراسة حول
قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة

للدكتور محمد بيومي مهران
أستاذ التاريخ القديم المشارك بالكلية

من المعروف منذ زمن طويل أن قصص الطوفان الكبير الذي هلك فيه كل الناس على وجه التقريب ، تنتشر انتشاراً واسعاً في جميع أنحاء العالم ، فهناك قصص عن الطوفان ، في بعض مجتمعات الشرق الأدنى القديم ، وفي الهند وبورما والصين والملايو واستراليا وجزر المحيط الهادي ، وفي مجتمعات الهنود الحمر(١) .

وقد قدم لنا « السير جيمس فريزر Sir James Frazer » دراسة عن قصص « الطوفان الكبير » في أساطير الأمم المختلفة ، نستنتج منها أنها كانت منتشرة في قارة آسيا وفي استراليا وفي أمريكا الشماليةوالوسطى والجنوبية — فيما قبل العهدالأوربي — ولكنها قليلة نسبياً في قارة أوربا ، وأقل منها في أفريقيا(٢) .

ولعل من الأهمية بمكان أن نشير إلى أنه رغم كثرة قصص الطوفان وانتشارها ، فإنها تختلف فيما بينها اختلافات كثيرة ، كما أن قسماً منها أساطير وضعت وضعاً لتفسير بعض العوارض الأرضية كالمنخفضات الواسعة في البلاد التي وضعت فيها تلك الأساطير (٣) أضف إلى ذلك أنه ليست هناك رواية واحدة أصيلة عن الطوفان الكبير دونت في أفريقيا ، فمثلا لم يكتشف أثر لهذه الحكاية في الأدب المصري القديم — وهو دون شك أهم الآداب الأفريقية وأكثرها أصالة دون منازع — أما عن رواية الطوفان التي تنسب

(١) Sollberger. E. The Flood, London, 1962,, P. 11

(٢) جيمس فريزر ، الفلكلور في العهد القديم ، ترجمة نبيلة إبراهيم ، مراجعة حسن ظاظا ، ص ٩١-٢١٩

(٣) طه باقر : مقدمة في تاريخ الحضارةالقديمة — الجزء الأول — العراق ، ص ٤٦٠ .

إلى « غينيا الشمالية » فهي أسطورة أكثر منها قصة ، اختلطت فيها الخرافات بالمعجزات حتى بات من الصعب علينا مقارنتها بغيرها من قصص الطوفان ، هذا إلى أنها نقلت إلينا عن طريق المبشرين الأوربيين ، حتى أصبحنا لا نستطيع الحكم عليها وإرجاعها إلى أصل غيني أو أوربي ، أضف إلى ذلك أن هناك رواية أخرى تذهب إلى أن الرجال قد تحولوا بعد الطوفان إلى قرود ، كما تحولت النساء إلى سحالي ، وأن ذيل القرد هو بندقية الرجل ، مما يدل بوضوح على مدى التأثير الأوربي الحديث في هذه الأسطورة الأفريقية عن الطوفان ، كما أن الروايات التي اكتشفها الكتاب الألمان عن الطوفان الكبير بين سكان أفريقيا الشرقية ليست سوى روايات مختلفة لقصة الطوفان في الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل) والتي تسربت إلى هؤلاء البدائيين عن طريق المسيحيين(١) .

وبديهي أننا لن نناقش هنا كل القصص والأساطير التي دارت حول الطوفان الكبير الذي أغرق العالم ، ولكننا سوف نقتصر على دراسة قصة الطوفان في منطقة الشرق الأدنى القديم ، سواء تلك القصص التي روتها المصادر التاريخية ، أو تلك التي تحدثت عنها الكتب المقدسة – التوراة والإنجيل والقرآن العظيم – وكلها – دون استثناء – أنزلت على أرض هذا الشرق القديم ، كما أنه ليس واحداً من أصحابها – صلوات الله وسلامه عليهم – إلا وكان من هذا الشرق الخالد .

ولعل الذي دفعني إلى دراسة هذا الموضوع إحساس عميق بأن تنال الموضوعات التاريخية المتصلة بالكتب المقدسة قسطاً وافراً من المؤرخين المسلمين ، بعد أن ظل الميدان في العصر الحديث يكاد يكون مقصوراً على الغربيين من يهود ونصارى ، وساعدني على هذه المحاولة تخصصي في التاريخ القديم ، فضلا عن دراسات إسلامية قضيت فيها الشطر المبكر من حياتي العلمية ، وإن كنت لا أزعم لنفسي فيها – بحال من الأحوال – مكانة تعدو مكانة عامة المسلمين الذين تعلموا من أمور دينهم القدر الذي يتعرفون به عليه ، وإن كان مما لا ريب فيه أنه لا يصل بهم إلى مكانة الخاصة من المتخصصين في دراسات القرآن الكريم والحديث الشريف وعلومهما ، ثم كان لوجودي بين أعضاء

---

(١) جيمس فريزر : المرجع السابق ص ٢٠١–٢٠٢ .

هيئة التدريس بقسم التاريخ في كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية سبب آخر للقيام بهذه الدراسة .

أولاً : قصة الطوفان السومرية :

كان الناس يعتقدون حتّى أواخر القرن الماضي أن التوراة هي أقدم مصدر لقصة الطوفان ، ولكن الاكتشافات الحديثة أثبتت أن ذلك مجرد وهم ، حيث عثر في عام ١٨٥٣ م على نسخة من رواية الطوفان البابلية ، وفي الفترة ما بين عامي ١٨٨٩ ، ١٩٠٠م ، اكتشفت أول بعثة أمريكية قامت بالحفر في العراق اللوح الطيني الذي يحتوي على القصة السومرية للطوفان في مدينة « نيبور » (نفر) ، وكان « أرنو بوبل » أول من قام بنشره في عام ١٩١٤م ، ثم تبعه آخرون(١) ، وإن كانت ترجمة « بوبل » هي الأساس الذي ما يزال يعتمد عليه الباحثون .

ويبدو من طابع الكتابة التي كتبت بها القصة السومرية أنها ترجع إلى ما يقرب من عهد الملك البابلي الشهير « حمورابي » (١٧٢٨–١٦٨٦ ق.م) ، على أنه من المؤكد أن القصة نفسها ، إنما ترجع إلى عصر أقدم من ذلك بكثير ، ذلك لأنه في هذا الوقت الذي كتب فيه اللوح لم يكن هناك وجود للسومريين ، بوصفهم عنصراً مستقلا ، إذ كانوا قد ذابوا في الشعب السامي ، كما أن لغتهم الأصلية كانت قد أصبحت من قبل لغة ميتة ، وذلك على الرغم من أن الكهنة والكتاب الساميين كانوا لا يزالون يدرسون الأدب القديم والنصوص المقدسة المحفوظة في ثنايا تلك الآداب ، ويعيدون كتابتها ، ومن ثم فإن اكتشاف رواية قصة الطوفان السومرية يدعو إلى افتراض أنها إنما ترجع إلى زمن سابق على احتلال الساميين لوادي الفرات ، وأن هؤلاء الساميين قد أخذوا هذه

---

(١) « أ » Arno Poebel, in PBS, IV, Pt. I. P. 9–70.

« ب » L. W. King, Legends of Babylon and Egypt in Relation to Hebrow Tradition 1914.

« ح » S.N. Kramer, Sumerian Mythology, Philadelphia, 1944, p. 97–98.

وكذلك ANET, P. 42/44.

القصة – فيما يبدو – بعد هجرتهم إلى وادي الفرات عن السومريين(١) الذين سكنوا المنطقة قبلهم(٢) .

وأما سبب الفيضان ، فلا يعسر علينا إدراكه ، ولا سيما في بلد تكثر فيه الفيضانات الفجائية كالقسم الجنوبي من العراق ، ولكن طوفاناً كبيراً كالذي تحدثت عنه المصادر السومرية والبابلية هو دون شك حدث عظيم وقع قبيل تغلب الإنسان على الأنهار ، بما أنشأه من السدود وأعمال الإرواء ، وأن هطول الأمطار كان مصحوباً بعواصف مدمرة(٣) .

وتتضمن قصة الطوفان السومرية عدة وقائع هامة ، يتعلق أول ما يمكن قراءته من سطورها بخلق الإنسان والنبات والحيوان ، وبأصل الملكية السماوي ، فضلاً عن خمس مدن ترجع إلى ما قبل فترة الطوفان ، ومن أسف أن من بين اللوحات التي تتناول القصة لم تبق سوى لوحة واحدة ، وحتى هذه فإن ما بقي منها لا يعدو ثلثها الأخير فحسب ، وقد فقدت المقدمة والنهاية الخاصة بذلك النص ، ومن ثم فإنه غامض في أكثر نواحيه ، هذا ويقدر عدد الأسطر التي يتكون منها النص في جملته بحوالي ثلاثمائة سطر ، لم يعثر إلا على حوالي المائة منها ، ورغم ذلك فانها تقدم لنا الخطوط الرئيسية للنص .

---

(١) السومريون : يتفق المؤرخون على أن السومريين جنس غير سامي ، وأن لغتهم غريبة لا تشبه اللغات السامية ، ولا يعلم زمن مجيئهم إلى وادي الرافدين ، وإن رأى البعض أن ذلك ربما كان في فترة مبكرة من الألف الرابعة ق. م. ، (AJA, 52, 1948, p. 156–64) وقد اختلفت الآراء في موطنهم الأصلي ، فقد ذكرت أساطيرهم أنهم جاءوا من الجنوب ، ومن ثم ذهب رأي إلى أنهم مهاجرون من منطقة ما تقع فيما بين شمال الهند وبين أفغانستان وبلوخستان عن طريق الخليج العربي وجزيرة البحرين بعد أن استقروا في غربي إيران فترة ما (عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم جـ ١ ص ٨٣٨) ، (E.A. Speiser, The Sumerian Problem Revieved) وذهب رأي ثان إلى اعتبارهم بدوا مما وراء القوقاز أو مما وراء بحر قزوين ، ويرى « روتزني » أنهم جاءوا من آسيا الصغرى ، بينما رأى آخرون أنهم جاءوا من السند (أحمد فخري : دراسات في تاريخ الشرق القديم ص ٢٨) بل لقد ذهب طه باقر (المرجع السابق ص ٨٩–٩٠) إلى أنهم من الأقوام التي قطنت العراق في عصور ما قبل التاريخ ، وأن حضارتهم أصيلة في العراق ، بل ويمكن تسمية أهل حضارة « العبيد » بالسومريين ، على الرغم من أننا لا نعرف اللغة التي تكلم بها أهل حضارة العبيد .

(٢) جيمس فريزر : المرجع السابق ص ١٠٣ .

(٣) مجلة سومر – المجلد السابع ١٩٥١ م – العدد الأول .

وعلى أي حال ، فبعد ٣٧ سطراً ، نلتقي بمعبود يشير إلى أنه سوف ينقذ البشر من الهلاك وأن الإنسان سوف يبني المدن والمعابد ، ويلي ذلك ثلاثة سطور غامضة ، ربما كانت تتضمن ما سوف يبذله المعبود في هذا السبيل ، ثم الحديث عن خلق الإنسان والحيوان وربما النبات . . . ثم ٣٧ سطراً ضائعة ، نعرف بعدها أن الملكية هبطت من السماء ، وأن خمس مدائن أسست . . . ثم ٣٧ سطراً ضائعة . . . ربما تشير إلى إصرار الآلهة على الإتيان بالفيضان وتدمير البشر ، وحين يصبح النص مقروءاً نجد بعض الآلهة غير راضين ، وتجتاحهم التعاسة بسبب القرار القاسي . . . . ثم نلتقي ببطل القصة « زيوسودرا Ziusudra » الذي يوصف بالتقوى ، وبأنه ملك يخـاف الإله ، ويكب على خدمته في تواضع وخشوع ، ويطيل النظر إلى المكان المقدس ، وهو يقيم بجوار حائط يستمع منه إلى صوت معبوده أنكى الذي أخبره بالقرار الذي اتخذه مجمع الآلهة بإرسال الطوفان « لإهلاك بذرة الجنس البشري » .

ولعل من المؤكد أن ما يلي ذلك تعليمات مسهبة إلى « زيوسودرا » ببناء سفينة هائلة لينقذ نفسه من الهلاك ، غير أن هذا كله ناقص لوجود كسر كبير في اللوحة ، ربما كان يشغل ٤٠ سطراً ، ومن ثم فنحن ننتقل فجأة من موضوع تحذير الإله للإنسان إلى موضوع الطوفان ، فيصف اللوح العاصفة والأمطار وقد ثارت جميعاً ، ثم تستمر الرواية فتقول « وبعد أن هبت العاصفة الممطرة على الأرض سبعة أيام وسبع ليال يكتسح الفيضان فيها الأرض ، ويدفع الفلك قدماً على المياه المضطربة ، ثم يظهر بعد ذلك إله الشمس « أوتو » وهو يسكب الضوء على السماء والأرض ، وعندما تخترق أشعة الشمس السفينة ، ويرى « زيوسودرا » نور ربه ، ويعلم بصفحه ، يخرج من الفلك ويسجد للرب مضحياً له بفحل وشاة » .

ويلي ذلك كسر يشغل ٣٩ سطراً ، ثم تصف الأسطر الباقية كيف نفث الإله روح الخلود في « زيوسودرا » ، مستقرا بأرض دلمون ، حيث تشرق الشمس ، أي حيث القوة القاهرة للموت(١) ، دلمون التي هي مركز الخلق في الأساطير السومرية ، جنة الخلد ،

(١) E.O. James, Mythes et Rites dans le Proche-Orient Ancien, Paris, 1960, p. 247.

« أرض دلمون مكان طاهر ، أرض دلمون مكان مقدس(١) » ، ثم يوصف « زيوسودرا » بعد ذلك بأنه « الشخص الذي حافظ على سلامة الجنس البشري »(٢) .

ويحتمل من سياق لوح صغير أن « زيوسودرا » كان قد تلقى الحكمة عن أبيه « شورباك » بن « وبار-توتو » أحد ملوك ما قبل الطوفان ، وقد كرر في وصاياه لولده أن يتقبل نصائحه وأن يعمل بها ، وألا يحيد عنها(٣) وهاك ترجمة للنص السومري لقصة الطوفان — كما هو موجود الآن(٤) .

٣٧ سطراً على وجه التقريب مهشمة في بداية النص ، ثم يلي ذلك :

إن البشر عبادي ، وعن الهلاك المحيق بهم سأعمل ... إلى نينتو ... سأعيد مخلوقاتي . سأعيد القوم إلى مواطنهم ، أما المدن ، فحقا سوف يبنون فيها لأنفسهم أماكن للشرائع الإلهية ، وسأجعل ظلالها في سلام ، وأما عن بيوتنا (ربما يعني أماكن الشرائع الإلهية) فحقا سوف يضعون آجرها في أماكن طاهرة ، وهو (أي الإله) قد وجه . . . الخاص بالحرم ، وأكمل الشعائر ، والشرائع الإلهية المبجلة ، وعلى الأرض . . . قد وضع . . . هناك ، وبعد أن خلق آنو وانليل وانكى ونينهورساج البشر « ذوي الرؤوس السود(٥) » ،

(١) J. Mougayrol et J.M.Aynard, La Mésopotamie, Paris, 1965, p. 58–59

(٢) «أ» صمويل نوح كريمر : أساطير العالم القديم ، ترجمة د. أحمد عبد الحميد يوسف ، مراجعة د. عبد المنعم أبو بكر ، ص ٩٧ ، «ب» جيمس فريزر : المرجع السابق ص ١٠٣–١٠٥ ، «ج» نجيب ميخائيل : مصر والشرق الأدنى القديم ج٦ ص ٢٦٤–٢٦٥ ، «د» رشيد الناضوري : جنوب غربي آسيا وشمال أفريقيا – الكتاب الأول ص ٢٢٢–٢٢٤ ، وكذلك
Samuel Noah Kramer, The Deluge, in ANET, 1966, p. 42–44.

(٣) W.G. Lambert, Babylonian Wisdom Literature, Oxford, 1960, p. 92F.
وكذا عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٤٣٩ .

(٤) «أ» محمد عبد القادر محمد : قصة الطوفان في أدب بلاد الرافدين ص ١١٠–١١٤ .
«ب» Jack Finegan, Light from the Ancient Past, 1969, p. 30–31.
«ج» S.N. Kramer, in ANET, p. 42–44, and Sumerian Mythology, p. 97 F.
«د» S. Langdon, Semitic Mythology, 1931, p. 206–8.
وكذلك كريمر : من ألواح سومر ص ٢٥٢ – ٢٥٩ .

(٥) أصحاب الرؤوس السوداء : أرضهم سومر ، وهم ليسوا ساميين ولا آريين ، ولغتهم ليست سامية =

وازدهر الزرع في الأرض ، وأخرجت الحيوانات ومخلوقات السهول ذوات الأربع إلى الوجود بحكمة . . . ثم نجابه بحوالي ٣٧ سطراً مهشمة . . . وبعد أن أنزلت الملكية من السماء ، وبعد أن أنزل « تيارا » المعظم ، عرش الملك من السماء . . . أكمل الشعائر والشرائع الإلهية المبجلة ، وأسس المدن الخمس في . . . مواضع طاهرة ، وسماها بأسمائها وجعلها مراكز للعبادة ، وكانت أولى هذه المدن « أريدو » فأعطاها إلى « نوديمو » القائد ، والثانية « بادتيبيرا » وأعطاها إلى . . . ، وكانت الثالثة « لاراك » وأعطاها إلى أندو بيلهورساج ، وأعطى الرابعة « سيبار » للبطل « أوتو » ، وأما الخامسة ف « شورباك » وقد أعطاها ل « سود » ، وحين سمى هذه المدن وجعلها مراكز للعبادة ، فإنه أحضر . . . ثم قرر تطهير الأنهار الصغيرة . . . ثم حوالي ٣٧ سطراً مهشمة . . .

الطوفان . . . هكذا حلّ بـ . . . ثم بكت نينتو مثل . . . وناحت « أنانا » الطاهرة من أجل أناسها ، ثم قام زيوسودرا ، الملك ، الباشيشو (لقب كهنوتي) وبنى . . . ضخماً ، مطيعاً متواضعاً في احترام . . . حاضراً كل يوم دائماً . . . محضراً كل أنواع الاحترام . . . ناطقاً اسمي السماء والأرض . . . الآلهة حائط . . . وكان زيوسودرا واقفاً إلى جانبه ، وقد سمع . . . قف عند الحائط إلى جانبي الأيسر ، وعند الحائط سوف ألقي إليك كلمته . . . أصغ إلى تعليماتي ، بقضائنا . . . طوفاناً سوف يكتسح مراكز العبادة ، ويقضي على بذرة البشر ، ذلك قرار ، إنها كلمة مجلس الآلهة ، بناء على الكلمة التي أمر بها « أنو » و « إنليل » ... وسوف ينتهي ملكها وحكمها ... (حوالي ٤٠ سطراً مهشمة) .

وهبت جميع الزوابع بعنف وضراوة كقوة واحدة ، وبعد ذلك ولمدة سبعة أيام وسبع ليال ، اكتسح الطوفان الأرض(١) فيها ، وتقاذفت الأعاصير السفينة الضخمة فوق المياه

= أوهندوأوروبية (انظر H. Frankfort, the Art and Architecture of the Ancient Orient, p. 235, n. 2) وربما كانت كتابة الوركاء التصويرية سومرية ، ومن ثم فإن هؤلاء القوم ربما كانوا في ميزوبوتاميا على الأقل منذ الفترة الأخيرة من عصر الوركاء ، وربما منذ فترة مبكرة من الألف الرابعة ق.م (انظر ، J. Finegan, op-cit, p. 29) على أن هذا التعبير ، وإن كان يعني السومريين ، فربما يعني كذلك سكان سومر واكد معاً ، وربما يشير في هذا النص إلى البشر عامة .

(١) المقصود أرض سومر ، وليس الكرة الأرضية (ANET, p. 43).

الضخمة ، وظهر « أوتو » الذي يضيء السماء والأرض ، وفتح زيوسودرا كوة (نافذة) في الفلك العظيم ، وأنفذ البطل « أوتو » أشعته في الفلك العظيم ، وسجد زيوسودرا الملك أمام أوتو العظيم ، وفي نفس الوقت اكتسح الطوفان مراكز العبادة ، وضحى الملك بفحل وشاة . . . (حوالي ٣٩ سطراً مهشمة) تنطق أنت « نسمة السماء » و « نسمة الأرض » حقا ، وتبسط نفسها عنه . . . ونادى آنو وأنليل نسمة السماء ونسمة الأرض . . . . فبسطت نفسها . . . وازدهر الزرع الذي ينبت من الأرض ، وسجد زيوسودرا أمام أنو وإنليل ، ورضي أنو وإنليل عن زيوسودرا ، الملك ، الذي حافظ على اسم الزرع وبذرة البشر ، وفي أرض دلمون ، أرض العبور ، حيث تشرق الشمس أسكناه هناك ، . . . أما بقية اللوح (٣٩ سطراً) فهي مكسورة ، ولهذا لا نعرف ماذا حدث لزيوسودرا بعد ذلك .

ولكن أين أرض دلمون هذه ؟

إن العلماء مختلفون في موقع دلمون السومرية هذه ، فذهب بعضهم إلى أنها في الجهة الجنوبية الغربية من بلاد فارس (الجزء الشرقي من ساحل الخليج العربي)(١) ، ومنهم من رأى أنها منطقة وادي السند(٢) ، ومنهم من رأى أنها سهول العراق الكائنة إلى جنوب غرب بابل(٣) ، وهناك من رأى أنها إنما تقع في القسم الشرقي من جزيرة العرب بين مجان وبيت نبسانو(٤) ، إلا أن غالبية العلماء يكادون يتفقون على أن موقع دلمون ، إنما هو جزيرة البحرين الحالية ، أو جزيرة البحرين والساحل المقابل لها(٥) .

وسؤال البداهة الآن : هل هناك من الأدلة الأثرية في العراق ما يثبت قصة الطوفان السومرية هذه ؟ .

---

(١) S.N. Kramer, Dilmun, the land of the Living, BASoR, 96, 1944, P. 18–28.

(٢) S.N. Kramer, the Indus Civilization and Dilmun, the Sumerian Paradise Land Expedition, Philadelphia, 1964, P. 45.

(٣) جون ألدر : الأحجار تتكلم – ترجمة عزت زكي – ص ٣٠ .

(٤) F. Hommel, Grundriss, I, S. 250.

(٥) P.B. Cornwell, On the Location of Dilmun, BASOR, 103, 1946, P. 3–11. وكذلك J. Finegan, op-cit., P. 32

لقد عثر « سير ليونارد وولي(١) » في حفائره في « أور » عام ١٩٢٩م على طبقة من الغرين السميك الذي يقدر بحوالي ثمانية أقدام والذي اعتبره دليلاً ماديا على الطوفان السومري نظراً لكثافة تلك الطبقة الغرينية وتوافقها الزمني إلى حد كبير مع النصوص السومرية ، هذا مع ملاحظة أن تلك الطبقة الغرينية تقع فوق وتحت آثار تنتمي إلى عصر حضارة العبيد ، والتي تمثل عصر ما قبل الأسرات الأول في جنوب العراق ، ثم اتجه « وولي » بعد ذلك إلى الحفر في موقع بعيد عن « أور » بحوالي ثلاثمائة ياردة من ناحية الشمال الغربي للبحث عن مدى امتداد تلك الطبقة الغرينية ، وكانت نتيجة الحفر إيجابية ، مما أدى إلى القول بوجهة نظره المشهورة في ارتباط تلك الطبقة الغرينية السميكة بالطوفان الذي ذكرته الكتب المقدسة(٢) .

ولكن أستاذنا الدكتور رشيد الناضوري يرى أنه لا ينبغي الجزم بصورة حاسمة في هذا الشأن ، ذلك لأن جنوب العراق القديم قد واجه الكثير من الفيضانات والطوفان ، فهناك أدلة غرينية على فيضان أو طوفان كبير في شورباك يرجع إلى نهاية عصر « جمدة نصر » ، وآخر في « كيش » يرجع إلى فترة لاحقة للفيضان السابق ، وهكذا بات من الصعب علينا المقارنة بين تلك الفيضانات ، وأيها هو الذي يتفق مع قائمة الملوك السومرية ، ولعل فيضان « شورباك » أكثر قرباً منها على أساس أن تلك القائمة قد أشارت إلى المدينة الأخيرة ، كآخر مدينة قبل حادث الطوفان ، ولكن في نفس الوقت علينا ألا نستبعد كلية طوفان « أور » ذي الطبقة السميكة للغاية ، أضف إلى ذلك أن عدم العثور على الطبقة الغرينية الموازية في كافة المدن السومرية يدفع إلى الاتجاه باحتمال كون الطبقة الغرينية التي عثر عليها « وولي » في أور ، إنما هي مجرد ترسيب محلي ، ليس له الصفة الشاملة(٣) .

---

(١) C.L. Woolley, ur of the Chaldees, London, 1950, P. 22–29, Excavations at ur, P. 26–36.

(٢) رشيد الناضوري : المرجع السابق ص ٢٢٥ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ٢٢٥ – ٢٢٦ ، وانظر كذلك J. Finegan, op cit., P. 24. وكذلك H.W.F. Saggs, the Greatness that was Babylon, London, 1962, footnote, P. 34–35.

وهناك من الأدلة كذلك قائمة الملوك السومرية . والمكتوبة بالخط المسماري بعد عام ٢٠٠٠ ق.م(١) ، أو في فترة لا تتأخر كثيراً عن منتصف عهد أسره أور الثالثة (حوالي ٢١١٢ – ٢٠١٥ ق.م) ، وربما قبيل عهد « أوتوحيجال » من أسرة الوركاء الخامسة ، وإن كان يبدو أنها نسخت عن قوائم قديمة ربما ترجع إلى أخريات العهد الأكدي ، وعلى أى حال ، فإنها تحتوي على معلومات تاريخية ترجع إلى بداية العصر التاريخي في العراق القديم ، وربما إلى أقدم من ذلك(٢).

وتبدأ الوثيقة بالقول أنه « عندما أنزلت الملكية من السماء كانت في مدينة « أريدو » ، ثم تذكر القائمة ثمانية ملوك حكموا قبل الطوفان في خمس مدن هي : أريدو ، بادتيبيرا (تل المدائن قرب تللو) لارك (الوركاء : قرب كوت العمارة) ، سيبار (أبو حبة) وشورباك (تل فارة) ، وأن هؤلاء الملوك قد حكموا ٢٤١،٢٠٠ سنة ، وأن آخر هؤلاء الملوك كان «وبار-توتو» وأنه قد حكم في مدينة شورباك لمدة ١٨،٦٠٠ سنة ، ثم جاء من بعدهم الطوفان الذي أغرق الأرض ، وبعد زوال الطوفان هبطت الملكية ثانية من السماء إلى « كيش » – وهي تل الأحيمر الآن قرب الحلة – ثم الوركاء (إرك في التوراة) ، وهنا تعود القائمة مرة أخرى إلى ذكر أسماء المدن التي حكمت العراق القديم بعد ذلك(٣) .

ورغم الأرقام الأسطورية التي قدمتها الوثيقة كفترة حكم لملوكها ، حتى بات من الصعب علينا أن نعرف منها متى انتهى العصر الأسطوري ومتى بدأ العصر التاريخي ؟ ، إلا أن الوثيقة – دون شك – تحمل بين طياتها كثيراً من المعلومات التاريخية الصحيحة ، ومع ذلك ، فما يهمنا هنا في الدرجة الأولى ، أن الوثيقة تتحدث بوضوح عن طوفان يفصل بين فترتي حكم ، الأولى سابقة له ، والثانية تالية له ، تبدأ بنزول الملكية مرة ثانية

(١) S.L.Woolley, Excavations At Ur, London, 1963, P. 14.

(٢) Ibid., P. 14 وكذلك J. Fin egan, op. cit., P. 29.

(٣) S.L. Woolley, op. cit., P.14–15, وكذلك J. Finegan, op-cit., P. 29–30 وكذلك A.L.Oppenheim, in ANET, P. 265–67

وكذلك Thorkild Jacobson, the Sumerian King List, Assyrian Studies, 11, Chicago,1939

وكذلك G.A. Barton, the Royal Inscriptions of Sumer and Akkad, P. 346 F.

من السماء إلى كيش ثم الوركاء فأور ، ولعل في هذا دليلاً واضحاً على أن قائمة الملوك السومرية إنما تعتبر حادث الطوفان الخطير بمثابة كسر في عملية استمرار تاريخ العراق القديم ، ومن ثم فهو حد فاصل بين عصور ما قبل التاريخ والعصر التاريخي .

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الأدلة الأثرية التي عثر عليها في طبقات مدينتي أريدو والوركاء لتثبت حقيقة ما نصت عليه وثيقة قائمة الملوك السومرية من حيث انتقال السيادة السياسية في جنوب العراق القديم بين تلك المدن(١) .

ويتجه « Sir Leonard Woolley » إلى اعتبــار هذا الطوفان — موضوع الحديث — طوفاناً كبيراً لا مثيل له في أي عصر لاحق من تاريخ العراق القديم ، صحيح أن هناك في أور ، وفي مواضع أخرى من ميزوبوتاميا ، أدلة على فيضانات مؤقتة ومحلية حدثت في أوقات مختلفة من تاريخ العراق القديم ، وفي بعض الأحايين لم يكن أكثر من نتيجة أمطار هطلت في منطقة محدودة ، ولكن صحيح كذلك أن الطوفان الذي وضع نهاية لحضارة « العبيد » إنما يتفق في توقيته مع التاريخ السومري الذي وصل إلينا عن طريق التقاليد ، وأنه بعينه الطوفان الذي تحدثت عنه قائمة الملوك السومرية ، وهو الطوفان الذي روته التوراة في سفر التكوين ، على أنه يجب ألا يفهم أن القصة بحذافيرها صحيحة ، صحيح أن الخلفية حقيقة تاريخية ، ولكن التفاصيل قد زخرفها المؤلف السومري والعبري ببيانات وأوصاف تتفق وهدف كل منهما من كتابتها ، فمثلاً تقول التوراة إن الماء قد ارتفع ٢٦ قدماً ، وهذا ما يبدو صحيحاً إلى حد كبير ، كما أن القصة السومرية تصف إنسان ما قبل الطوفان بأنه كان يعيش في أكواخ من بوص ، وهذا أمر أثبتته الحفائر في العبيد وفي أور ، وأن نوحاً قد بنى فلكه من خشب خفيف لا ينفذ منه الماء ولا يؤثر فيه ، وأنه قد طلاه من داخل ومن خارج ، وهو أمر قد أثبتته الحفائر(٢) .

وهناك من الأدلة كذلك ما حدثنا عنه « سير ليونارد وولي » من أنه قد وجد في أور

---

(١) رشيد الناضوري : المرجع السابق ص ٢٤٧ .

(٢) Sir Leonard Woolley, op. cit., P. 34-36.

أسفل طبقة المباني السومرية طبقة طينية مليئة بقدور من الفخار الملون ، مختلط بها أدوات من الصوان والزجاج البركاني ، وكان سمك هذه الطبقة حوالي ١٦ قدماً (٣ أمتار تقريباً) أسفل المباني الطينية التي يمكن تأريخها بحوالي عام ٢٧٠٠ ق.م ، وأن أور قد عاشت أسفل هذه الطبقة في عصر ما قبل الطوفان ، ولم تجر حتى الآن أي حفائر على نطاق واسع في هذه المنطقة ، وكل ما أمكن إثباته هو وجود مدينة قبل الطوفان . . . وأن الفخار الملون قد اختفى ، ويستنتج « وولي » أن سبب اختفاء هذا الفخار الملون الذي كان منتشراً في جنوب بلاد الرافدين قبل الطوفان اختفاء تاما مرة واحدة ، هو أن الطوفان قد قضى قضاء تاماً على سكان هذه البلاد ، وحتى من بقي منهم حيا فقد فَقَدَ القدرة على الإنتاج ، فجاء شعب جديد ، هم السومريون ، إلى تلك البلاد الخالية ، وأسسوا حضارة جديدة ، وكان فخارهم مصنوعاً على دولاب الفخار ، بدلاً من الفخار المصنوع باليد الذي كان سائداً في عصور ما قبل الطوفان ، كما استعملوا الأدوات المعدنية بدلا من الصوان(١) .

ولعل سائلاً يتساءل ، وهل كان الطوفان السومري هذا طوفاناً عاماً أغرق الدنيا كلها ، أم أنه كان مقصوراً على جنوب العراق ؟ .

ويجيب « وولي » بأن الطوفان لم يكن طوفاناً عالميا عمّ الكون بأسره ، وإنما كان مقصوراً على الحوض الأسفل لنهري الدجلة والفرات ، وأنه قد أغرق المنطقة الصالحة للسكنى هناك بين الجبال والصحراء ، – والتي هي بالنسبة إلى السكان الذين يعيشون فيها بمثابة العالم كله – وأن المساحة التي شملها الطوفان ربما كانت ٤٠٠ ميل طولاً ، في ١٠٠ ميل عرضاً ، وأن الغالبية العظمى من السكان قد أغرقهم الطوفان ، وأن القوم قد رأوا أن هذه الكارثة بمثابة عقاب من الإله بسبب آثام الناس وخطاياهم ، وأن قلة نادرة قد نجت ، وأن رأس هذه القلة قد نظر إليه كبطل للقصة ، وهو هنا «زيوسودرا»(٢).

---

(١) محمد عبد القادر : المرجع السابق ص ٩٦–٩٧ .

(٢) Sir Leonard Woolley, op. cit., P.36. وكذلك Werner Keller, The Bib As History, London, 1967, P. 50-51.

ثانياً : قصص الطوفان البابلية

١ – ملحمة جلجاميش :

لقد ظل العالم لا يعرف شيئاً عن قصة الطوفان البابلية إلا من خلال رواية « بيروسوس» التي كتبت باللغة اليونانية – والتي سوف نتحدث عنها فيما بعد – إلى أن عثر « هـ. رسام H. Rassam » في عام ١٨٥٣م على نسخـــة من رواية الطوفان البابلية في مكتبة « أشور بانيبال » (٦٦٨–٦٢٦ ق.م) الشهيرة في العاصمة الآشورية «نينوى» ترجع إلى القرن السابع ق.م .

وفي الثالث من ديسمبر ١٨٧٢ م أعلن « سيدني سمث » نجاحه في جمع القطع المتناثرة من ملحمة جلجاميش بعضها إلى بعض ، مكتوبة في اثني عشر نشيداً ، أو بالأحرى لوحاً ، ومحتوية على قصة الطوفان في لوحها الحادي عشر(١) .

وأما « جلجاميش » هذا فهو واحد من الملوك الذين ورد اسمهم في ثبتِ ملوك الوركاء في عهد أسرتها الأولى التي لا نعرف عنها شيئاً سوى أسماء ملوكها ، وقد صار بعضهم – مثل جلجاميش – موضوعاً لقصص وملاحم شعرية ، ويرجح العلماء الآن أن هؤلاء الملوك قد حكموا في العراق – في مدينة الوركاء – قبل عصور فجر الأسرات أو في بدايته(٢) ، على أننا نستطيع أن نعين تاريخاً تقريبيا لعهد « جلجاميش » هذا عن طريق قطعة من المرمر موجودة بالمتحف العراقي – وإن كانت مجهولة الأصل – كتب عليها « مي-براج-سي » ملك كيش ، وقد ثبت أنه الملك الثاني والعشرين من أسرة كيش الأولى « إن مي-براج-سي » هو في نفس الوقت والد « أجا » ملك كيش الذي حارب ضد « جلجاميش » خامس ملوك الوركاء – كما تحدثنا أسطورة جلجاميش وأجا السومرية(٣) – ويرى « جورج روكس » أن « إن-مي-براج-سي » هو أقدم حاكم

---

(١) M.F.Unger, Unger's Bible Dictionary, P. 371. وكذا : جيمس فريزر : المرجع السابق ص ٩٦–٩٧ .

(٢) طه باقر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة جـ١ ص ٤٥٩ .

(٣) S.N. Kramer, in ANET, P. 44–47. وكذا نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٢٦٥–٢٦٧ .

سومري معروف لنا ، وإذا ما اعتبرنا أن « سرجون الأكدي » كان يعيش في الفترة (٢٣٧١-٢٣١٦ ق.م) ، فإنه من الممكن تقدير تاريخ حكم « إن-مي-براج-سي » هذا بحوالي عام ٢٧٠٠ ق.م ، كما يمكن اعتبار ذلك التاريخ بداية للعصر التاريخي في العراق القديم(١) ، ومن ثم فإن جلجاميش كان يعيش بعد هذا التاريخ بفترة ليست بعيدة على أي حال .

وقد اشتهر جلجاميش في آداب العراق القديم منذ أقدم عصور التاريخ ، وصار موضوعاً لعدة ملاحم سومرية وبابلية ، تدور حول مغامراته وأعماله البطولية ، حتى صار أشبه ما يكون بأبطال اليونان في عهد الأشعار الهومرية ، وهرقل والإسكندر في المآثر العربية ، ونمرود الوارد في التوراة(٢) ، وإن كانت ملحمته المشهورة بقصة جلجاميش ، والتي يؤلف خبر الطوفان جزءاً منها ، أشهر ما عرف عنه من قصص وملاحم .

وهاك ملخصاً لها :

تبدأ قصة الطوفان بعد أن ينتهي جلجاميش من قصته التي فقد في أخرياتها صديقه « أنكيدو » ، ذلك أن جلجاميش كان ملكاً حكيماً واسع المعرفة ، شجاعاً جريئاً ، ولكنه كان ظالماً مستبدا ، ومن ثم فإن الآلهة قد خلقت له « أنكيدو » ليدافع عن الناس ضد ظلمه ، إلا أن الصراع بينهما لم يحسم في مصلحة واحد منهما ، ومن ثم فقد تم الصلح بينهما ، وقام الاثنان بمغامرات كثيرة ، ثم مات أنكيدو فجأة ، فحزن جلجاميش لفقده ، ثم أسلمه الحزن إلى المرض ، وظل خائفاً يترقب مصيره المحتوم ، وإن كان في الوقت نفسه بدأ يفكر في وسيلة يتقي بها غائلة الموت ، وهكذا هداه تفكيره إلى البحث عن جده « أوتنابيشتم » بن « وبار-توتو » ليسأله عن كيفية إمكان أن يكون الإنسان الفاني مخلداً ، إذ كان على يقين من أن « أوتنابيشتم » على علم بهذا الأمر ، ذلك لأن الآلهة قد رفعته إلى مصافها ، وجعلته يسكن بعيداً في مكان ما متمتعاً بنعمة الخلود .

ويتحمل جلجاميش من أجل بغيته هذه رحلة مضنية خطيرة ، يلتقي في أثنائها

---

(١) محمد أبو المحاسن عصفور : معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم ص ٣٤٩ - ٣٥٠ . وكذا
George Roux, Ancient Iraq, (Penguin Books), 1966, P. 119–120.
وكذا Sir Leonard Woolley, op. cit., P. 14.

(٢) طه باقر : المرجع السابق ص ٤٥٩ .

برجل وامرأة في شكل ثعبانين يحرسان جبلاً ، كما يخترق طريقاً مفزعاً مظلماً لم تطأه قدما إنسان فانٍ من قبل ، ثم يعبر بحراً مترامي الأطراف ، وأخيراً يلتقي بإحدى الإلهات فيطلب منها أن تدله على مكان جده « أوتنابيشتم » ، ولكنها — وقد علمت هدفه — تسدي إليه النصح قائلة : إلى أين تسعى يا جلجاميش ؟ إن الحياة التي تبغي لن تجدها ، ذلك لأن الآلهة لما خلقت البشر جعلت الموت من نصيبهم ، واستأثرت هي بالخلود . . . لتكن مبتهجاً ليل نهار ، ولتجعل كل يوم من حياتك يوم فرح وحبور . . . دلّل الطفل الذي يمسك بيدك ، أدخل السرور إلى قلب المرأة التي في أحضانك . . . فهذا هو نصيب البشرية » ، ومع ذلك فإن جلجاميش يصر على سؤاله ، فلا تجد الإلهة إلا أن تجيبه إلى ما يريد .

ويلتقي جلجاميش بجده « أوتنابيشتم » فيطرح سؤاله عن كيفية حصول الإنسان على الخلود ، وهنا يجيبه « أوتنابيشتم » : هل بنينا بيتاً يقوم إلى الأبد ؟ هل عقدنا عهداً على أن نستمر إلى أبد الآبدين ؟ لم يكن هناك خلود منذ القدم ، ما أعظم الشبه بين الميت والنائم ، ألا تظهر على وجهيهما هيبة الموت ؟ وهكذا مصير السيد والعبد حتى ينتهي أجلهما في هذه الدنيا . . . وحين يتعجب جلجاميش من هذه الإجابة من شخص كان هو نفسه إنساناً فانياً ثم أصبح مخلداً فيما بعد ، كان على « أوتنابيشتم » أن يشرح له كيف استطاع هو نفسه أن يهرب من المصير المحتوم لكل إنسان ، فقص عليه قصة الطوفان الكبير التي تجرى على النحو التالي .

وهاك ترجمة(١) لها :

---

(١) E.A. Speiser, The Epic of Gilgamesh, in ANET, P. 72–99.
وكذلك محمد عبد القادر : المرجع السابق ص ٩٨–١١٠ ، وكذلك طه باقر : المرجع السابق ص ٤٦٧–٤٧٠ ، وكذا نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٣٤٧–٣٥٩ ، وكذلك : جيمس فريزر : المرجع السابق ص ٩٧–١٠١ .

وكذلك J. Finegan, op. cit., P. 33–36.

وكذلك J. Gray, Near Eastern Mythology, P. 48–51.

وكذا S. Langdon, Semitic Mythology, P 210–23

وكذلك Alexander Heidel, The Gilgamesh Epic and Old Testament Parallels, 1949.

وكذلك E.A. Wallis Budge, the Babylonian story of the Deluge and the Epic of Gilgamesh, 1920.

وكذلك ANEA, P. 40F.

وكذا E. Campbell Thompson, the Epic of Gilgamesh, 1930

قال أوتنابيشتم له ، لجاجاميش ، سأكشف لك يا جلجاميش عما خفي من الأمر ، سوف أخبرك بسر الآلهة ، شورباك مدينة أنت تعرفها على ضفاف الفرات ، وهي مدينة قديمة قدم الآلهة التي بها ، عندما انتوت الآلهة إحداث الطوفان ، كان من بينهم « آنو » أبوهم ، و « انليل » الشجاع مستشارهم ، و « نينورتا » مساعدهم ، و « إينوجي » مفتش الترع ، و « نينجيكو-أيا » كان حاضراً معهم ، وأعاد قولهم إلى كوخ القصب (ربما مسكن أوتنابيشتم) : يا كوخ القصب ، يا حائط ، يا حائط ، اصغ يا كوخ القصب ، استمع يا حائط ، يا رجل شورياك ، يا ابن « وبار-توتو » .

اهدم هذا البيت ، وابن فلكاً ، دع الأملاك وأنقذ حياتك ، اهجر المتاع ودع الروح حية ، واحمل على ظهر الفلك بذرة كل شيء حي ، والفلك التي ستبنيها ستكون أبعادها حسب هذا المقياس ، عرضها مثل طولها ، واجعل سقفها كسقف الأيسو (العالم السفلي) . ففهمت وقلت لمولاي « إيا » : نعم يا مولاي ، إن ما تأمر به يشرفني أن أنفذه ، لكن بم أجيب المدينة : الناس والشيوخ .

ففتح « إيا » فاه وأجاب قائلاً لخادمه ، لي أنا ، قل لهم : علمت أن إنليل يعاديني ، ومن ثم فلا أستطيع أن أقيم في مدينتكم أو أضع قدمي في أملاك أنليل ، ولذا فسوف أنزل إلى الأعماق ، وأسكن مع مولاي « إيا » ، وأما أنتم فسوف ينزل عليكم مطراً مدراراً . . . خير الطيور وأندر الأسماك ، وسوف تمتلىء الأرض بمحاصيل وفيرة ، ومع انبثاق الفجر تجمعت الأرض من حوالي . . . النص مهشم ، وحمل الصغار القار ، وجاء البالغون بكل ما احتجنا إليه .

وفي اليوم الخامس أقمت هيكلها (أي السفينة) ، وكانت أرضيتها فداناً كاملاً ، وكان ارتفاع كل حائط من حوائطها ١٢٠ ذراعاً ، وطول كل ضلع من السطح ١٢٠ ذراعاً ، وبنيت هيكل جوانبها وربطتها إلى بعضها ، وجعلت فيها ستة أسطح ، قسمتها إلى سبعة طوابق ، وقسمت أرضيتها تسعة أجزاء ، ودققت سدادات المياه بها ، وجهزتها بما نحتاج إليه من المؤن ، وصببت في الفرن ست سار (السار ــ ٨٠٠ جالون) من القار ، كما صببت كذلك ثلاثة سار من الأسفلت ، (فضلا) عن ثلاثة سار من الزيت نقله

حاملو السلال ، وسار من الزيت استهلكته القلفطة ، كما خزن الملاح سارين من الزيت ، وذبحت ثيراناً للناس ، ونحرت ماشية كل يوم ، وأعطيت العمال عصير فواكه ، ونبيذاً أحمر وآخر أبيض ، وكأنه مياه النهر ، ليشربوا وكأنهم في يوم عيد رأس السنة ، وفتحت . . . الدهون ، لوضعها على يدي .

واكتمل الفلك في اليوم السابع ، وكان إنزاله إلى الماء بالغ المشقة ، حتى إنهم اضطروا لدفع ألواح الأرضية من أعلى ومن أسفل ، حتى أمكن إنزال ثلثي هيكله إلى الماء ، وحملتها بكل ما عندي ، حمّلتها بكل ما لدي من فضة ، حلمتها بكل ما لدي من ذهب ، حمّلتها بكل ما أملك من الكائنات الحية وكل عائلتي وذوي قرباي ، أركبتهم الفلك ، وكذا حيوان الحقل ووحوش الحقل ، وكل الصناع أركبتهم معي .

وقد حدّد لي « شمس » (شماس) وقتاً معيناً ، عندما ينزل الموكل بالزوابع ليلاً مطرا مهلكاً ، أصعد إلى الفلك وأوصد بابه . وجاء اليوم الموعود ، وأنزل الموكل بالزوابع ليلاً مطراً مهلكاً ، وأخذت أرقب وجه السماء ، وكان منظر العاصفة مخيفاً يثير الرعب ، فصعدت إلى الفلك وأوصدت بابه ، وعهدت إلى النوتي « بوزور-أموری » بقيادة الفلك ، وبسد جميع منافذه .

ومع انبثاق الفجر ، ظهرت في السماء غمامة سوداء ، وأرعد « أداد » من داخلها ، وتقدمها « شولات » و« هانيش » كنذيرين فوق التل والسهل ، ونزع « إيرجال » (نرجال إله العالم السفلي) الأعمدة (أي الأعمدة الخاصة بسد العـــالم) ، وجاءت « نينورتا » وجعلت السدود تفيض ، وحمل « أنوناكي » المشاعل وجعلوا الأرض تشتعل نارا ، ووصل الذعر من « أداد » إلى عنان السماء ، فأحال النور إلى ظلمة ، وانصدعت الأرض الواسعة ، وكأنها جرة ، وهبت عاصفة الجنوب يوماً كاملاً بسرعة عنيفة حتى أخفت الجبال ، وحلت بالناس وكأنها حرب ، فلا يرى الأخ أخاه ، ولم يعد الناس يعرفون من في السماء ، وخشي الآلهة الطوفان فأجفلوا وصعدوا إلى سماء « أنو » (أعلى سماء في النظرية العالمية عند الأكديين) حيث ربضوا كالكلاب على الأسوار الخارجية ، وصرخت عشتار وكأنها امرأة جاءها المخاض ، وناحت سيدة الآلهة ذات الصوت الشجي

بصوت عال : واحسرتاه ! ، لقد تحولت الأيام الخوالي إلى طمي ، لأني لعنت الناس في مجمع الآلهة ، ولكن : كيف ألعن الناس في مجلس الآلهة ، وأعلن حرباً لفناء الناس ، بينما أنا التي وهبتهم الحياة ، إنهم يملأون البحر كبيض السمك ، وبكى آلهة « أنوناكي » معها وجلس الآلهة جميعاً يبكون في ذلة ، وقد التصقت شفاههم بعضها ببعض ، واستمرت ريح الفيضان تهب ستة أيام وست ليال ، وعاصفة الجنوب تكتسح الأرض .

وفي اليوم السابع سكنت عاصفة الجنوب عن الحرب التي شنتها وكأنها جيش من الخيالة ، وهدأ البحر ، وسكنت العاصفة وتوقف الطوفان ، وتطلعت إلى الجو ، فإذا السكون شامل ، وإذا الناس وقد تحولوا إلى طين ، وإذا الأرض قد تشققت وكأنها جرة ، ففتحت كوة وسقط الضوء على وجهي ، فجلست وبكيت وسالت دموعي على وجهي ، وتطلعت إلى الدنيا في عرض البحر ، وفي كل من الأقاليم الأربعة عشر ، (الاثني عشر) طلع نجم .

واستوت الفلك على جبل نيصير (١) ، وأمسك جبل نيصير بالفلك ولم يدعها تتحرك ، ويوم ثم يوم آخر ، وجبل نيصير يستمسك بالسفين فلا تحير حراكاً ، ويوم ثالث ورابع ، وجبل نيصير يستمسك بالسفين فلا تحير حراكاً ويوم خامس ثم يوم سادس وجبل نيصير يستمسك بالسفين فلا تحير حراكاً ، فلما كان اليوم السابع أطلقت حمامة فذهبت وعادت وعزّ عليها أن تجد مكاناً ظاهراً تحط عليه ، ثم أطلقت « سنونو » ، إلا أنه عاد ، إذ لم يكن ثمة مكان ظاهر يحط عليه ، ثم أطلقت غراباً فذهب ورأى الماء يتناقص فأكل وعبّ ودار ولم يعد ، ثم أطلقت الجميع إلى الرياح الأربعة ، وضحيت وأرقت سكيبة على قمة الجبل ، ونصبت ٤ أقدار ، وعلى صحاف قوائمها كومت القصب وخشب الأرز والآس . فشمت الآلهة الرائحة الزكية ، وتكأكأت حول الأضاحي ، وعندما وصلت سيدة الآلهة (عشتار) نزعت المجوهرات العظيمة التي صاغها لها « أنو »

---

(١) تصف النصوص المسمارية البابلية القديمة موقع جبل نيصير (نيزير) بأنه بين الدجلة والزاب الأسفل وحيث سلسلة جبال كردستان في شرق الدجلة ، وعلى أى حال فهو يمكن توحيده بجبل بئر عمر جد رون (انظر Speizer, AASOR, 8, 1926–27, P. 7, 17–18. وكذا Finegan, op. cit., P.35. وكذا Keller, op. cit., P. 57 ومحمد عبد القادر : قصة الطوفان في أدب بلاد الرافدين) .

طبقاً لمشتهاها ، وقالت : أيتها الآلهة ، كما أنني سوف لا أنسى حقا عقد اللازورد الذي في عنقي ، فسوف أذكر هذه الأيام ولن أنساها ، ليتقدم الآلهة إلى القربان ، إلا أنليل ، فإنه لا يتقدم ، لأنه أحدث الطوفان دون روية ، وقاد شعبي إلى التهلكة .

ولما جاء أنليل ورأى الفلك عزّ عليه ذلك ، وامتلأ غضباً على آلهة « أجيجي » (آلهة السماء) وقال : هل نجت روح ، ما كان للبشر أن يبقى ، ففتح « نينورتا » فاه وقال : من غير «إيا» يفشي الخطط ، فإنه ، يا أنليل الباسل ، يعلم كل شيء . وفتح « إيا » فاه وقال لأنليل البطل : أنت يا أحكم الآلهة ، أيها البطل ، كيف تحدث الطوفان دون روية ، على الآثم وزر إثمه ، وعلى المعتدي وزر اعتدائه ، كن رحيماً وإلا قطع . . . كن صبوراً وإلا أقصي . . .

ليت أسداً هب وقلل من بني الإنسان ، بدلاً من أن تأتي بالطوفان ، ليت ذئباً هب وقلل من بني الإنسان ، بدلاً من إحداث الطوفان ، ليت مجاعة هبت وقللت من بني الإنسان ، بدلاً من إحداث الطوفان ، ليت طاعوناً هب وقلل من بني الإنسان بدلا من إحداث الطوفان .

لست أنا الذي أفشيت سر الآلهة العظام ، بل جعلت « أتراخاسيس » (حكيم الحكماء ــ أوتنابيشتم) يرى حلماً كشف فيه سر الآلهة ، فاقض فيه ما أنت قاض ، وعينئذ صعد أنليل إلى ظهر السفين وأمسك بيدي وأخذني إلى ظهرها وأخذ زوجتي وجعلها تركع بجانبي ووقف بيننا ليباركنا وقال : لم يعد أوتنابيشتم بشراً ، سيكون هو وزوجته أشبه بنا معشر الأرباب ، وعلى ذلك أخذوني وأسكنوني بعيداً عند مصاب الأنهار ، ولكن أنت يا جلجاميش من يجمع لك مجمع الآلهة ليهبوا لك الحياة التي تريد ؟ . .

٢ ــ قصة بيروسوس :

في النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد ، وعلى أيام الملك « أنتيوخوس الأول » (٢٨٠ــ٢٦١ ق.م) ، كان هناك أحد كهنة الإله « مردوك » البابلي ، ويدعى « بيروسوس Berossos » قد كتب تاريخ بلاده باللغــة اليونانية في ثلاثة أجزاء ، ومن

أسف أن هذه الكتابات ـ شأنها في ذلك شأن كتابات الكاهن المؤرخ المصري مانيتو من نفس الفترة ـ والتي تقدم وجهة النظر القومية حينئذ عن تاريخ العراق القديم لم تصل إلينا كاملة ، وكل ما وصلنا منها مقتطفات حفظها لنا المؤرخون المتأخرون من الأغارقة ، ومن حسن الحظ أن هذه المقتطفات كانت تحتوي على قصة الطوفان البابلية التي تجري أحداثها على النحو التالي :

في عهد الملك « أكسيسوثروس » ، وفي ليلة ما ، رأى هذا الملك فيما يرى النائم أن الإله « كرونوس » يحذره من طوفان سوف يغمر الأرض ويهلك الحرث والنسل ، في اليوم الخامس عشر من شهر « دايسيوس » ـ وهو الشهر الثامن من السنة المقدونية ـ ومن ثم فإن عليه أن يكتب تاريخ البشرية منذ بدايتها ، وأن يدفن ما يكتبه في مدينة سيبار ، بلد الشمس ، حتى لا يضيع في طوفان سوف يدمر كل شيء ، كما أمره كذلك أن يبني فلكاً يأوي إليه .

ويسأل « أكسيسوثروس » ربه عن المكان الذي يبحر إليه بفلكه هذا ، فإذا به يجيبه « إلى الآلهة ، ولكن بعد أن تصلي من أجل خير الناس » ، ويصدع الملك بأمر إلهه ، ويبني فلكاً طوله مائة وألف ياردة ، وعرضه أربعمائة وأربعون ياردة ، يجمع فيه كل أقربائه وأصحابه ، ويختزن فيه زاداً من اللحم والشراب ، فضلاً عن الكائنات الحية من الطيور وذوات الأربع .

ويغرق الطوفان الأرض ، وعندما ينحسر عنها يطلق الملك سراح بعض الطيور التي تعود إليه ثانية ، ثم يطلقها بعد أيام ، فإذا بها تعود وأرجلها ملوثة بالطين ، وحين يكرر الأمر مرة ثالثة لا تعود الطيور إلى الفلك ، ويعلم الملك أن الماء قد انحسر عن الأرض ، وينظر من كوة في السفين فيرى الشاطئ الذي يتجه إليه ، وهناك تستقر الفلك عند جبل ، حيث ينزل الملك وزوجه وابنته وقائد الدفة .

ويسجد الملك لربه ويقدم له القرابين ، ثم يختفي هو ومن معه ، ويبحث الذين ما يزالون في الفلك عن الملك ورفاقه ، ولكنهم لا يجدون لهم أثراً ، وحين يجدّون في البحث عن المختفين يسمعون صوتاً يدوي في الهواء ، ويطلب منهم أن يتقوا الآلهة ويكفوا عن

البحث عن المختفين ، لأن الآلهة قد اختارتهم لكي يسكنوا إلى جوارها ، ثم يأمرهم الصوت بالعودة إلى بابل والبحث عن الكتابات المدفونة هناك ، وأن يوزعوها فيما بينهم ، كما أخبرهم الصوت أن الأرض التي يقفون عليها ، إنما هي أرض أرمينيا ، وهكذا عاد القوم - دون المختفين - إلى بابل ، واستخرجوا الكتابات المدفونة في سيبار ، وشيدوا مدناً كثيرة ، وأعادوا الأرض المقدسة وعمروا بابل بنسلهم(١) .

وهناك رواية أخرى لأسطورة الطوفان قديمة كل القدم ، اكتشفت في مدينة « نيبور »(٢) في أثناء عمليات الحفر التي قامت بها جامعة بنسيلفانيا ، وهذه الرواية مدونة على كسرة من الفخار غير المحترق ، وقد رأى الأستاذ « هـ. و. هيلبرخت » مرتكزاً على أسلوب كتابتها ، وعلى المكان الذي عثر عليها فيه ، أن هذه الرواية لم تدون بعد عام ٢١٠٠ ق.م ، وقد ورد في هذه الرواية أن الإله ظهر ليذيع نبأ حدوث طوفان سيكتسح الجنس البشري في الحال ، وحذر من هذا الطوفان شخصاً بعينه ، فطلب منه أن يبني فلكاً كبيراً ، ذا سقف قوي ، لينجو فيها بحياته ، وأن يأخذ معه فيها صنوف الحيوان الأليفة وطيور السماء(٣) .

وهكذا فإن هناك الكثير من الشواهد الأثرية لقصة الطوفان البابلية ، تؤيدها كتابات على لوح مهشم اكتشف في مدينة « سيبار » أثناء عملية الحفر التي قامت بها الحكومة التركية ، ويرجع إلى حوالي عام ١٩٦٦ ق.م ، نستطيع أن نستخلص منه اسم « أثرخاسيس » (أترام خاسيس) ، فضلاً عن إشارات إلى المطر الغزير ، وإلى السفين

---

(١) سير جيمس فريزر : الفلكلور في العهد القديم - ترجمة نبيلة إبراهيم - مراجعة حسن ظاظا - جـ١ - ص ٩٤-٩٥ .

(٢) نيبور : وتقع على مبعدة مائة ميل إلى الجنوب من بغداد ، وفي منتصف المسافة تقريباً بين كيش وشورباك ، وتعتبر نيبور أهم المراكز الثقافية السومرية في العراق القديم ، كما أنها أكبر مدينة مقدسة ، وربما أكبر مركز ديني في بابل ، كما أن « انليل » إله المدينة كان رئيس مجمع الآلهة البابلي ، وقد أمدتنا المدينة بالآلاف من اللوحات المكتوبة والجذاذات التي صنفت في الألف الثالثة والثانية ق.م، والتي تدل بوضوح على مدى انتشار الثقافة السومرية (انظر KFTS, P. 277)
وكذلك J.P.Peters, Nippur, or Explorations on the Euphrates, 2 vols., 1897.
وكذلك H.W.Hilprecht, the Excavations in Assyria and Babylonia, 1903, P. 289FF

(٣) جيمس فريزر : المرجع السابق - ص ١٠٢ .

الذي أمر الملك التقي في « شورباك » ببنائه ، وإلى الأفراد الذين أنقذوا من الطوفان بواسطة الفلك(١) .

هذه هي أهم الروايات لقصة الطوفان في العراق القديم ، وقبل أن نعقد مقارنة بين القصص السومرية والبابلية ، نوّد أن نشير إلى أنه قد عثر في أرشيف « بوغازكوي » العاصمة الحيثية على نسخة ترجع إلى الألف الثاني ق.م ، فضلاً عن ترجمة للقصة باللغة الحيثية ، وأخرى بالحورية على جزء من لوحة حورية .

يرى « جيمس فريزر(٢) » أن قصة الطوفان السومرية تتفق في ملامحها الأساسية مع قصة الطوفان كما جاءت في ملحمة جلجاميش التي تتميز عن أختها السومرية بطولها وكثرة حوادثها ، ففي كلتا القصتين قرر إله كبير أن يهلك الجنس البشري عن طريق إغراق الأرض بالأمطار ، وفي كليتهما حذر إله آخر رجلا من حدوث الكارثة ، وقد أنقذ هذا الرجل ومن معه عن طريق سفينة أمر ببنائها ، وفي كلتا الحكايتين بلغ الفيضان ذروته في اليوم السابع ، وفي كلتا الحكايتين قدم الإنسان ضحيته للآلهة بعد أن انتهى الطوفان ، ثم رفعته الآلهة بعد ذلك إلى مصافها .

أما الاختلاف الجوهري الوحيد بين الروايتين ، فيتمثل في اسم البطل فيهما ، فهو « زيوسودرا » في الرواية السومرية ، وهو « أوتنابيشتم » أو « أثرخاسيس » في الرواية السامية .

ثالثاً : قصة الطوفان اليهودية كما ترويها التوراة :

وردت هذه القصة في الإصحاحات من السادس إلى التاسع من سفر التكوين ، وتجري أحداثها على النحو التالي — كما يصورها النص العربي للتوراة — :

بدأ الناس يتكاثرون على الأرض ، ويلدون بنات ، وهنا رأى أبناء الله أن بنات الناس حسناوات ، ومن ثم فقد اتخذوا منهن لأنفسهم نساء ، وسرعان ما أنجبت النسوة من بنات الناس ، أبناء للرجال من أبناء الله ، « وهم الجبابرة منذ الدهر » .

---

(١) جيمس فريزر : المرجع السابق – ص ١٠٢ . وكذا E. Sollberger, The Flood, P. 24F

(٢) جيمس فريزر : المرجع السابق – ص ١٠٥ .

وهنا رأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض ، فحزن أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبـــه ، وعزم على أن يمحو الإنسان والبهائم والدواب والطيور عن وجه الأرض ، وإن استثنى من ذلك نوحاً ، لأنه « كان رجلاً بارا كاملاً في أجياله ، وسار نوح مع الله » .

وتزداد شرور الناس ، وتمتلىء الأرض ظلماً ، ويقرر الرب نهاية البشرية ، إذ تحدرت إلى شر وغواية ، ويحيط نوحاً علماً بما انتواه ، آمراً إياه بأن يصنع فلكاً ضخماً ، « ثلاثمائة ذراع يكون طول الفلك وخمسين ذراعاً عرضه ، وثلاثين ذراعاً ارتفاعه » ، وأن يكون طلاؤها بالقار والقطران من داخل ومن خارج ، حتى لا يتسرب إليها الماء ، وأن يدخل فيها اثنين من كل ذى جسد حي ، ذكراً وأنثى ، فضلا عن امرأته وبنيه ونساء بنيه ، هذا إلى جانب طعام يكفي من في الفلك وما فيه(١) .

ويكرر الرب أوامره لنوح في الإصحاح التالي ، فيأمره أن يدخل الفلك ومن معه ، « ومن جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة ذكراً وأنثى ، ومن البهائم التي ليست بطاهرة اثنين ذكراً وأنثى ، ومن طيور السماء أيضاً سبعة سبعة ذكراً وأنثى لاستبقاء نسل على وجه كل الأرض » ، ذلك لأن الرب قرر أن يغرق الأرض ومن عليها وما عليها بعد سبعة أيام عن طريق مطر يسقط على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة ، ويصدع نوح بأمر ربه فيأوي إلى السفين ومعه أهله واثنين من البهائم الطاهرة وغير الطاهرة ، فضلاً عن الطيور وكل ما يدب على الأرض .

وفي اليوم السابع عشر من الشهر الثاني من عام ستمائة من حياة نوح بدأ الطوفان ، « وانفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء ، واستمر الطوفان أربعين يوماً على الأرض » ، وتكاثرت المياه ورفعت الفلك عن الأرض وتغطت جميع الجبال الشامخة التي تحت كل السماء ، خمس عشرة ذراعاً في الارتفاع تعاظمت المياه ، ومات كل جسد كان يدب على الأرض ، من الناس ، والطيور والبهائم والوحوش وكل

---

(١) تكوين ٦ : ١-٢٢ .

الزحافات ، وبقي نوح والذين معه في الفلك فحسب(١) .

ومضت مئة وخمسون يوماً نقصت من بعدها المياه ، حتى إذا ما كان اليوم السابع عشر من الشهر السابع استقرت الفلك على جبل أراراط ، ثم ظهرت رؤوس الجبال في اليوم الأول من الشهر العاشر ، ثم تمضي أربعون يوماً ، وبعدها يرسل نوح غراباً ثم حمامة تعود بعد فترة ، « لأنها لم تجد مقرا لرجلها » ، ثم يعود نوح فيرسلها ثانية بعد سبعة أيام أخر ، فتعود ومعها ورقة زيتون خضراء ، ويكرر نوح المحاولة بعد سبعة أيام أخر ، فلا تعود إليه الحمامة .

وفي أول الشهر الأول من السنة الواحدة بعد الستمائة من حياة نوح « فإذا وجه الأرض قد نشفت » ، وأمر نوحاً أن يخرج من السفين ، وكذا من معه وكل الحيوانات والدواب والطيور ، ويبني نوح مذبحاً للرب ويصعد له محرقة ، « فتنسم الرب رائحة الرضا ، وقال الرب في قلبه لا أعود ألعن الأرض من أجل الإنسان . . ولا أعود أميت كل حي كما فعلت »(٢) .

« وبارك الله نوحاً وبنيه وقال لهم أثمروا واكثروا واملأوا الأرض ، ولتكن خشيتكم ورهبتكم على كل حيوانات الأرض وطيور السماء » ، ثم حرم عليهم قتل بعضهم البعض الآخر ، لأن « سافك دم الإنسان بالإنسان يسفك دمه ، لأن الله على صورته عمل الإنسان » ، ثم يقيم الله ميثاقه مع نوح وبنيه ومع نسلهم من بعدهم ، فضلا عن الطيور والبهائم وكل وحوش الأرض ، على ألا يكون هناك طوفان بعد اليوم ، ذلك لأن الرب قد وضع قوسه في السحاب كعلامة ميثاق بينه وبين كل ذي جسد على الأرض ، وأنه متى نشر السحاب على الأرض وظهر القوس ، تذكر الرب ميثاقه ، فلا يكون طوفان يهلك كل ذي جسد على الأرض(٣) .

وتختم التوراة قصة الطوفان برواية دنيئة كاذبة مؤداها أن نوحاً قد شرب مرة بعد

---

(١) تكوين ٧ : ١–٢٣
(٢) تكوين ٧ : ١–٢١ .
(٣) تكوين ٩ : ١–١٧ .

نجاته من الطوفان نبيذ العنب الذي غرس كرمه بيده ، ففقد وعيه وانكشفت سوأته ، فرآه ابنه حام على هذه الصورة فسخر منه وحمل الخبر إلى أخويه سام ويافث ، ولكن هذين كانا أكثر منه أدباً ، فحملا رداء وسارا به القهقرى نحو أبيهما وسترا عورته دون أن يبصراها ، فلما أفاق نوح من خمره ، وبان له ما فعله به حام ، لعن كنعان ودعا على نسله أن يكونوا عبيداً لعبيد أولاد سام ويافث(١) .

وعاش نوح بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة ، فكانت كل أيام نوح تسع مئة وخمسين سنة ومات(٢) .

١ ـ مناقشة قصة التوراة عن الطوفان :

يجمع نقاد التوراة (العهد القديم)(٣) ، على أن أسطورة الطوفان العبرية كما هي مدونة في سفر التكوين تجمع بين قصتين متميزتين في أصلهما ، ومتناقضتين تناقضاً جزئيا ، وقد مزج المؤلف بين القصتين لكي يكون منهما قصة واحدة متجانسة من ناحية الشكل ، ومع ذلك فقد مزج المؤلف بينهما بطريقة فجة للغاية ، بحيث لا يفوت القارئ ما فيهما من تكرار وتناقض ، حتى وإن كان القارئ غير مدقق في قراءته(٤) .

وأما هذان المصدران اللذان أخذ سفر التكوين قصة الطوفان عنهما ، فأولهما : المصدر اليهوي « Jahvistic Document » ويرمز له بالحرف «J» ، وربما ألف حوالي عام ٨٥٠ ق.م في يهوذا ، وسمي كذلك لأنه يستعمل اسم العلم « يهوه » ، وأما ثانيهما فهو المصدر الكهنوتي « Priestly Document » ويرمز له بالحرف

(١) تكوين ٩ : ٢٠-٢٧ وكذلك علي عبد الواحد وافي : الأسفار المقدسة ص ٣٢ .
(٢) تكوين ٩ : ٢٨ ، ٢٩ .
(٣) التوراة : كلمة عبرانية تعني الهداية والإرشاد ، ويقصد بها الأسفار الخمسة الأولى (التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية) والتي تنسب إلى موسى – عليه السلام – وهي جزء من العهد القديم ، والذي يطلق عليه تجاوزاً اسم « التوراة » من باب اطلاق الجزء على الكل ، أو لأهمية التوراة ونسبتها إلى موسى – والتوراة ، أو العهد القديم – تمييزاً له عن العهد الجديد (كتاب المسيحيين المقدس) – هو كتاب اليهود الذي يضم إلى جانب تاريخهم ، عقائدهم وشرائعهم ، ويقسمه أحبار اليهود إلى ثلاثة أقسام : الناموس والأنبياء والكتابات (راجع كتابنا إسرائيل ص ١٩ وما بعدها) .
(٤) جيمس فريزر : المرجع السابق ، ص ١٠٦ .

« P » ، وهو حواشي الكهنة التي أضافوها إلى نص التوراة على عهد عزرا ونحميا ، وقد أدمج في مصادر التوراة (١) الأخرى حوالي نهاية القرن الخامس ، وربما الرابع ق.م ، وليس من شك أن كلا المصدرين يختلف عن الآخر اختلافاً بيّناً في أسلوبه وصيغته ، كما أنهما ينتميان إلى عصور مختلفة ، كما رأينا ، هذا إلى جانب أن الرواية « اليهوية » تنبض بحيوية وخيال ، بينا النص « الكهنوتي » ، وإن كان جافا بالقياس ، فهو يتميز بدقة وتدبر (٢) .

وتتميز العناصر التفصيلية التي تتألف منها قصة الطوفان في سفر التكوين بعضها عن بعض من حيث اللفظ والمادة (٣)، فإذا بدأنا بوجوه الاختلاف الشكلية ، فإن أول ما يلفت النظر هو اختلاف اسم الرب في كلا المصدرين فهو في المصدر اليهوي « يهوه » ، وهو في المصدر الكهنوتي « إلوهيم » ، وكلا الاسمين نقلتهما « الترجمة الإنجليزية المعتمدة » إلى كلمتي « السيد » و « الرب » على التوالي (٤)، وأما الترجمة العربية للتوراة ، فانها تستعمل كلمة « الرب » و « الله » بدلاً من « يهوه » و « إلوهيم » .

على أن الاختلافات المادية بين الحكايتين — اليهوية والكهنوتية — لا تزال تلفت النظر إلى أكثر من ذلك ، وحيث إن هذه الاختلافات تصل في بعض الحالات إلى حد التناقض القاطع ، فإن إثبات أن هذه الحكايات مستمدة من مصدرين منفصلين يصل إلى حد اليقين ، ولنقرأ ما جاء في سفر التكوين (٥) ، من أن الله أمر نوحاً أن يأخذ « من جميع البهائم الطاهرة سبعة سبعة ذكراً وأنثى ، ومن البهائم التي ليست بطاهرة اثنين ذكراً وأنثى ، ومن طيور السماء أيضاً سبعة ذكراً وأنثى » ، ثم نقرأ بعد ذلك في نفس السفر — بل وفي نفس الإصحاح — « ومن البهائم الطاهرة والبهائم التي ليست

---

(١) راجع عن « مصادر التوراة » كتابنا إسرائيل ص ٤٥–٤٨ .

(٢) La Sainte Bible (Ecole Biblique de Jérusalem) Ed. du Cerf, Paris, 1961, P. 14.
وانظر التعليق في الهامش ، وكذلك : حسين ذو الفقار صبري : توراة اليهود ، المجلة ، العدد ١٥٧ ، يناير ١٩٧٠ م .

(٣) راجع « التناقضات في التوراة » في كتابنا إسرائيل ، ص ٩٧–١٠٩ .

(٤) جيمس فريزر : المرجع السابق ص ١١٠ .

(٥) تكوين ٧ : ٢–٣ .

بطاهرة ومن الطيور وكل ما يدب على الأرض ، دخل اثنان اثنان إلى نوح إلى الفلك ذكراً وأنثى ، كما أمر الله نوحاً »(١) ، فهل أمر الله نوحاً أن يأخذ « سبعة سبعة » أم « اثنين اثنين » ؟ أم أن نوحاً — وحاشا نبي الله أن يكون كذلك — قد عصى أمر ربه ؟ أم أن هذا كان خطأً من الكاتب ؟ وإذا كان ذلك كذلك ، ففي أي النصين كان الخطأ ، أفي نص الأمر ، أم في نص التنفيذ ؟ علماً بأن نص التنفيذ قد تكرر مرة ثانية في التكوين « ودخلت إلى نوح إلى الفلك اثنين اثنين من كل جسد فيه روح حياة »(٢) ، كما أن الواضح من نص التكوين هذا أنه يضغط على أن ما أمر به الرب « اثنين اثنين » ، ولكنه في التكوين (٧ : ٢) يختلف عن ذلك كثيراً .

ولعل السبب في هـذا التناقض — فيما يرى جيمس فريزر(٣) — أن الحكاية اليهوية عن الطوفان تميز بين الحيوانات الطاهرة والحيوانات النجسة ، فبينما أخذ نوح معه في الفلك سبعة من كل صنف من صنوف الحيوان الطاهر ، لم يأخذ معه سوى زوج من كل صنف من صنوف الحيوان النجس ، أما الكاتب الكهنوتي فلم يميز بين صنوف الحيوان على هذا النحو ، بل جعلها تدخل الفلك وهي على قدم المساواة مع بعضها البعض ، وإن قصر عددها بدون تحيز على زوج من كل صنف ، والسبب في هذا الاختلاف البين ، هو أن الكاتب الكهنوتي لم يفرق بين ما هو طاهر من الحيوان وما هو نجس ، على أساس أن هذه التفرقة قد أوحى بها الرب لموسى لأول مرة ، ومن ثم فإن نوحاً لم يكن يعرفها ، أما الكاتب الكهنوتي فقد رأى أن التفرقة بين صنوف الحيوان على أساس الطهارة والنجاسة كانت معروفة لدى الجنس البشري منذ العصور الأولى .

ومرة أخرى تناقض التوراة نفسها في سبب الطوفان ، ففي الرواية اليهوية يعزو « يهوه » القضاء على البشرية ، إذ تحدرت إلى شر وغواية (٤)، أما في الرواية الكهنوتية ، فإن الله (إلوهيم) — لاحظ مرة أخرى الاختلاف بين « يهوه » هناك ، وبين « إلوهيم »

---

(١) تكوين ٧ : ٨-٩ .
(٢) تكوين ٧ : ١٥-١٦ .
(٣) جيمس فريزر : المرجع السابق . ص ١١٢ .
(٤) تكوين ٦ : ٥-٧ . كذلك : حسين ذو الفقار صبري . توراة اليهود ، المجلة ، العدد ١٥٧ يناير ١٩٧٠ ص ١١ .

(الله) هنا – إنما يتخذ قراره ! إذ يرى الأرض قد فسدت جميعاً . . . كل من وما عليها من حي »(١) .

والأمر كذلك بالنسبة إلى مصدر الطوفان ، فبينما يعزوه النص اليهوي إلى مطر عارم يتهاطل على الأرض أربعين يوماً بلياليها دون انقطاع (٢) ، يعزوه النص الكهنوتي ليس إلى المطر وحده ، وإنما تنفجر أيضاً ينابيع الغمر العظيم من أسفل كما من فوق ، فكأن قد انهار « الجلد » الذي نصبه الإله عند بدء الخليقة فاصلاً بين المياه السفلية والتي في السماء ، كما تحدثنا التوراة(٣) .

ثم إن هناك اختلافاً جوهرياً آخر بين الكاتبين يتعلق بدوام مدة الطوفان ، فقد ظلت الأمطار تهطل في قصة الكاتب اليهوي مدة أربعين يوماً وأربعين ليلة(٤) ، ثم ظل نوح في فلكه بعد ذلك مدة ثلاثة أسابيع قبل أن ينحسر الماء بمقدار يمكنه من الرسو بسفينته ، ووفقاً لهذا الحساب فإن الفيضان يكون قد دام واحداً وستين يوماً ، أما في الحكاية الكهنوتية فقد أخذ الطوفان يهطل مدة مائة وخمسين يوماً (٥) ، وبعده أخذت المياه في الانخفاض ، أما مدة الطوفان في العموم فقد استغرقت اثني عشر شهراً وعشرة أيام ، وحيث إن الشهور العبرية كانت شهوراً قمرية ، فإن الاثني عشر تقدر بثلاثمائة وأربعة وخمسين يوماً ، وإذا أضفنا إلى هذا الرقم عشرة أيام أخرى ، فإن المدة تكون حينئذ سنة شمسية كاملة ، أي ثلاثمائة وأربعة وستين يوماً ، وحيث إن الكاتب الكهنوتي قد حسب مدة الفيضان بما يساوي سنة شمسية ، فإنه يمكننا أن ندعي – ونحن مطمئنون – أن هذا الكاتب قد عاش في الزمن الذي استطاع فيه اليهود أن يصححوا الخطأ الكبير في التقويم القمري عن طريق مراقبتهم للشمس(٦) .

وأخيراً فإن الكاتب اليهوي – كما يقول جيمس فريزر(٧) – عن بناء نوح للهيكل

---

(١) تكوين ٦ : ١١–١٣ وكذلك : حسين ذو الفقار : المرجع السابق ص ١١ .
(٢) تكوين ٧ : ٤ ، ١٢ .
(٣) تكوين ١ : ٦–٧ وكذلك حسين ذو الفقار : المرجع السابق ص ١١ .
(٤) تكوين ٧ : ٥ ، ١٣ ، ١٧ .
(٥) تكوين ٧ : ٢٤ ، ٨ : ٣ .
(٦) جيمس فريزر : المرجع السابق ص ١١٢ .
(٧) نفس المرجع السابق ص ١١٣ .

وتقديمه الضحية للرب شكراً له على إنقاذه من الطوفان ، في حين أن الكاتب الكهنوتي لا يذكر شيئاً عن بناء الهيكل أو تقديم الضحية ، وسبب هذا بدون شك هو أنه لم يكن هناك هيكل سوى هيكل أورشليم من وجهة نظر القانون « اللاوي » الذي انشغل به الكاتب الكهنوتي ، كما أن تقديم الضحية من قبل رجل عادي مثل نوح يعد عملا غير لائق لم يحدث من قبل ، كما يعد تعدياً كبيراً على حقوق رجال الدين لم يفكر الكاتب الكهنوتي لحظة في أن ينسبه إلى الشيخ المبجل .

وبناء على ذلك فإن الموازنة بين الحكايتين تؤكد بصورة واضحة النتيجة التي توصل إليها النقاد، وهي أنهما كانتا في الأصل مستقلتين، وأن الحكاية اليهوية تعد بحق أقدم من الحكاية الكهنوتية ، ثم مزج كاتب النص الحالي في التوراة بينهما بطريقة فجة للغاية .

ثم يزعمون بعد ذلك — ويا للعجب — أن هذا تنزيل من عليّ قدير ، « كَبُرَتْ كلمةً تخرجُ من أفواههم إن يقولون إلا كذباً »(١). فإن كتاباً من عند الله لا تتضارب نصوصه بعضها مع بعض «أفلا يتدبَّرُونَ القرآنَ ولوكانَ مِنْ عندِ غيرِ الله لوَجدُوا فيه اختلافاً كثيراً»(٢).

بقيت نقطة أخيرة في قصة الطوفان — كما قدمتها التوراة — تتصل بوجهة نظر جديدة في الحقيقة ، ذلك لأنه نظراً لما تتمتع به الأساطير الطوفانية من دلالات خاصة في كافة الديانات ، فإنما ترمز إلى إعادة خلق(٣) ، أو إلى تكرار عملية التكوين الأولى ، فتتأكد فيه بالنسبة للمكان قدسية « المركز الكوني » ، وإنا لنجد إيحاءات بذلك في الكتابات الحاخامية ، تقريراً بأن « العالم خلق إلى وجود ابتداء من صهيون » ، وأن آدم إنما « سوّي في أورشليم »(٤) ، ثم الادعاء بأن أرض فلسطين متسامقة عن غيرها ، لم تغمرها مياه الطوفان ، مع التركيز في نصوص أخرى على أن مدينة أورشليم وجبل صهيون بالذات ، هما اللذان أفلتا من الغمر العظيم(٥).

---

(١) سورة الكهف : آية ٥ .

(٢) سورة النساء : آية ٨٢ .

(٣) Mircea Eliade, Traite d'Histoire des Religions, Paris, 1964, P. 182.

(٤) Mircea Eliade, Cosmos and History, New York, 1959, P. 16–18.

(٥) Ibid., P. 13–15. ، وكذلك حسين ذو الفقار : إله موسى في توراة اليهود : المجلة — العدد ١٦٣ يوليو ١٩٧٠ ص ١٥ .

فلو كانت العقيدة اليهودية صادقة مع نفسها ، لما انحط فلك نوح على جبل «أراراط» ، وإنما على جبل صهيون، الذي انعقدت من بعد نصوص التوراة على تجسيده في صورة من تفرد قدسي ، من حول معبد سليمان ، مما حدا بالحاخامات أن يدونوا ما دونوا – وسبق الإشارة إليه – من أنها منطقة متسامقة قصر عن أن يغمرها الطوفان ، في تحد سافر لما تقرره النصوص القديمة(١) من أن قد « تعاظمت المياه كثيراً جدا على الأرض ، فتغطت جميع الجبال الشامخة التي تحت السماء » ، ومن هنا ، فهو إذن صهيون ، وليس أراراط ، الجبل الذي انحط عليه فلك نوح ، إلا أن نكون أمام حقيقة تاريخية – فهو « الجودي » استوت عليه سفينة نوح ، إذ « غيض الماء وقضي الأمر »(٢)، ولكن من أدرانا أن « الجودي » كان قمة من جبال أراراط ، حتى نسلم أننا أمام حقيقة تاريخية ، إنما هو افتراض لا يستقيم مع المنطق – نستخلصه من الدراسات المقارنة – الذي خضعت له في جوهرها أساطير الأولين – بل وحتى تحبيرات الحاخامات ، بعد ذلك بقرون – حريصة كل الحرص على قدسية المكان ، من حيث مركزية تكوين ، وبالضرورة ، من حيث إعادة خلق ، أو إعادة توالد وتكاثر من صلب ذرية مصطفاة ، وقد أبيدت أسباب الحياة جميعاً(٣).

إننا بصدد أسطورة أجمع النقاد على أنها استعيرت من أصول سابقة – سومرية أو بابلية فيما قيل – استناداً إلى النصوص التي تمّ الكشف عنها ، ولكن ليس حتماً وبالضرورة ، فقد كانت شائعة ذائعة فيما بين الشعوب القديمة ، فمن يدرينا أن لم تستق عناصرها عند العبريين من روايات أخرى ، ضاعت أصولها فيما ضاع ، أو ربما هي بعد في طي الغيب ، لم تتهيأ ظروف الكشف عنها ، كما كان الحال بالنسبة للرواية السومرية قبل عام ١٩١٤م(٤) .

ولعل الذي يدفعنا إلى هذا التساؤل ، إنما هو كلمة « أراراط » استوقفتنا فنحار

---

(١) تكوين ٧ : ١٩ .

(٢) سورة هود آية : ٤٤ .

(٣) حسين ذو الفقار : المرجع السابق ص ١٥ .

(٤) نفس المرجع السابق ص ١٥ ، وكذلك S.H. Hooke, Middle Eastern Mythology, London, 1963, P.16.

كيف أمكنها التسلل إلى نصوص التوراة . . . لا تفسير إلا أن الأسطورة هنا مستقاة من أصول تداولها أقوام استوطنوا وقتاً ما هضاب أرمينيا ، تلك المنطقة الجبلية ، حرية بأن تكون قد أورثتهم عبادة إله ما ، بركاني الصفات والسمات ، يطلقون عليه من بعد – إذ يستقر بهم المقام في أرض كنعان – تحريفاً أو تبديلاً ، أسماء سامية أو قريبة في مخارجها على الأقل من اللغات السامية ، مثل « أداد » و « شداي » . وإل وه ربما كان هو الاسم العتيق للإله « يهوه » إله القينيين منذ الأزل . . . بل إن بعض الثقات يرجعون أسطورة الطوفان – كما في التوراة – إلى أصول «حورية» من الذين استقروا بأرض فلسطين في عصر إبراهيم (تك ١٤ : ٦) تعثر بنقوشهم متناثرة فيما بين تل الحريري (ماري القديمة) ورأس شمرا (أوجاريت) ، ولكن أقدمها ، تلك التي في « بوغازكوي » عاصمة الحيثيين القديمة بقلب الأناضول ، اشتملت على مقاطع من ملحمة جلجاميش ، ولغتهم – أو لهجة متفرعة عنها – هي التي كانت سـائدة في مملكة « أورارتو Urartu » – أرمينيا القديمة – إليها تنسب جبال « أرارات » أو « أراراط » كما في التوراة(١) ، ومع ذلك فإننا نميل إلى أن قصة الطوفان ، كما جاءت في التوراة ، إنما تعتمد في الدرجة الأولى على أساطير طوفانية – سومرية أو بابلية – من العراق القديم ، الأمر الذي سوف نوضحه فيما بعد .

ولكن : لعل من الأفضل قبل ذلك ، أن نشير إلى الدور الذي لعبه الخيال اليهودي في العصور المتأخرة بحكاية الطوفان – كما روتها التـوراة – فأضافوا إليها تفاصيل جديدة تميل إلى المغالاة أحياناً ، وإلى الزخارف الرخيصة أحياناً أخرى ، وإلى تشويه القصة في غالب الأحايين ، وكأن هؤلاء اليهود لم يكفهم ما فعله أسلاف لهم في عصور خلت من مسخ القصة الحقيقية – كما أنزلها الله على كليمه موسى عليه السلام – فخلطوا بينها وبين ما وجدوه في العراق القديم – على أيام السبي البابلي – من قصص عن طوفان يروي السومريون ، والبابليون من بعدهم أنه أغرق أرضهم .

---

(١) حسين ذو الفقار : المرجع السابق ص ١٥ ، ١٦ وكذلك :
O.R.Gurney, the Hittites (Penguin Books), 1969, P. 123–124:
وفي الترجمة العربية للدكتور محمد عبد القادر ص ١٧١ ، وكذلك . André Caquot, Mythologies des Semites Occidentaux in Mythologies de la Mediterranée au Gange, Paris, 1963, P. 92.

ومن بين الزخارف الرخيصة أو الإضافات الغريبة التي أضيفت إلى الأسطورة القديمة ، تصوير الناس وهم يعيشون في دعة قبل أن يحدث الطوفان ، فقد كانوا من زراعة واحدة يجنون محصولاً يكفي حاجاتهم طيلة أربعين عاماً ، كما كانوا بفنونهم السحرية يسخرون الشمس والقمر لخدمتهم ، ولم تكن الأجنة تمكث في بطون أمهاتها سوى بضعة أيام بدلاً من تسعة شهور ، وبمجرد أن يولد الأطفال يكونون قادرين على الكلام والسير على الأقدام ، بل إنهم يتحدون الشياطين ويستهزءون بهم . وإن هذه الحياة السهلة المرفهة كانت هي السبب فيما وصل إليه الناس من ضلالة ، كما كانت دافعاً لهم إلى ارتكاب الآثام ، وبخاصة الفسق والسلب ، الأمر الذي أثار غضب الرب وجعله يقرر أن يقضي على العاصين بأن يغرقهم في الطوفان .

ومع ذلك فقد أمهلهم الرب وأمر نوحاً بأن يعظهم حتى يرجعوا عن هذه الطريق ، وهددهم بأن الرب سيغرقهم في الطوفان جزاء جورهم ، وقد أخـذ نوح يعظهم طيلة مائة وعشرين عاماً ، بل إن الرب منحهم مهلة أسبوع آخر في نهاية هذه المدة ، وفي هذا الأسبوع جعل الرب الشمس تشرق كل صباح من المغرب ، وتغرب في المساء في المشرق ، ولكن هذا كله لم يحرك هؤلاء العاصين للرجوع إلى التوبة ، بل على العكس أخذوا يسخرون من نوح الورع ، ويستهزءون به عندما أبصروه يبني الفلك ، وكان نوح قد تعلم بناءه عن طريق كتاب مقدس كان قد سلمه الملاك «رزائيل» إلى آدم ، وكان يحتوي بين ثناياه على العلم الديني والدنيوي معاً ، وقد كان هذا الكتاب من الياقوت الأزرق ، وقد وضعه نوح في صندوق ذهبي أحكم إغلاقه وأخذه معه في الفلك ، فقام مقام الساعة في التمييز بين الليل والنهار في أثناء فترة الفيضان التي لم تكن تسطع فيها الشمس أو يبزغ فيها القمر ، أما الطوفان فقد تسبب عن التقاء المياه المذكرة التي هطلت من السماء بالمياه الأنثوية التي تدفقت من الأرض ، وقد تدفقت مياه السماء من تجاويف صنعها الرب بأن انتزع نجمين من برج الثريا فتركا مكانهما تجويفاً ، وعندما شاء الرب بعد ذلك أن يسكت الأمطار الهاطلة من السماء عاد فسد التجويفين بنجمين أخذهما من برج الدب ، وهذا هو السبب في أن برج الدب ما زال يلاحق برج الثريا حتى اليوم مطالباً بأولاده ولكنه لن يحصل عليهم إلى الأبد .

ومنها كذلك أن هناك حيواناً ضخماً هو « الريم » لم يجد له مكاناً في الفلك لضخامته ،

ولهذا فقد قيدّه نوح بحبل طويل ربطه في الفلك ، وأخذ الحيوان يخب من ورائها ، وبالمثل كان المارد « عوج بن عنق » ملك باشان من الضخامة بحيث لم يجد مكاناً في الفلك ، فجلس على ظهره وبذلك أنقذ ، أما عن الناس الذين كانوا مع نوح في الفلك فهم زوجته « نعمة » ابنة « أنوش » وأولاده الثلاثة وزوجاتّهم .

على أن مشكلة المشاكل التي كان على نوح أن يواجهها هي مشكلة توزيع المؤن ، إذ كان عليه أن يطعم حيوان النهار نهاراً ، وحيوان الليل ليلاً ، كما كان عليه أن يقدم الطعام للمارد « عوج » من خلال ثقب في سقف السفينة ، ورغم أنه كان يقضي ليله ونهاره صاعداً هابطاً في السفينة لإطعام ما فيها ومن فيها ، فإنه لم يسلم من الأذى ، ذلك أن الأسد الذي كان هادئاً نسبيا لإصابته بالحمى طوال الوقت كان فظا للغاية ، وذات مرة لم يقدم له نوح الغذاء الكافي ، فما كان منه إلا أن ضرب نوحاً بكفه ضربة أصابته بالعرج سائر أيام حياته(١) .

وهناك رواية لكاتب مسيحي — ربما عاش في فترة الفتح الإسلامي — عثر عليها من بين مخطوطات دير سانت كاترين في سيناء ، تقدم لنا تفصيلات مثيرة عن نظام الفلك الداخلي ، فالقطعان والوحوش قد سكنت جوف السفينة ، كما سكنت الطيور الدور الأوسط منها ، وخص نوح سطح النزهة في السفينة له ولأسرته بعد أن عزل الرجال عن النساء ، فأقام نوح وأولاده في الجانب الشرقي من هذا السطح ، كما أقامت الزوجات مع أطفالهن في الطرف الغربي منه ، وكان الحاجز بين هؤلاء وأولئك جثة آدم التي كانت قد انتشلت من قبر غمرته المياه ، كما تخبرنا الرواية بعد ذلك بأبعاد السفينة على وجه التحديد بالذراع وعن اليوم والشهر الذي ركب فيه الركاب الفلك(٢) .

٢ — قصة الطوفان : بين التوراة وقصص السومريين والبابليين :

يكاد يتفق العلماء — من أمثال ليوناردوولي (٣) ، وأدولف لودز(٤) ، وستانلي

(١) راجع عن هذه الصور الغريبة وأمثالها : جيمس فريزر : المرجع السابق ص ١١٦—١١٩ .
(٢) جيمس فريزر : المرجع السابق ص ١١٩ .
(٣) Sir Leonard Woolley, Excavations At Ur, P. 34.
(٤) Adolphe Lods, Israel, from its Beginnings to the Middle of the Eight Century, P. 486.

كوك(١) ، وجورج بارتون(٢) ، وجاك فينجان(٣) ، ويونجر(٤) ، وول ديورانت (٥)، وجيمس فريزر(٦) — على أن قصة الطوفان ، كما جاءت في التوراة ، ليست قصة عبرية أصيلة ، وإنما أخذها الإسرائيليون من ميزوبوتاميا ، ولكن القصة لم تنقل بطريقة عمياء ، وإنما تصرفوا فيها بطريقة تتفق وأهداف كتابهم المقدس ، ذلك لأن القصة التوراتية هي نفس القصة التي وجدت على ألواح مكتوبة منذ فترة ترجع إلى ما قبل عصر إبراهيم — عليه السلام (٧) — بل إن الرواية البابلية أقدم من الرواية العبرية بما يقرب من أحد عشر أو اثني عشر قرناً، فضلاً عن أن الحكاية العبرية في جوهرها — كما لاحظ تسيمرن — تقضي بأن يكون البلد المشار إليه قابلاً لحدوث الفيضان مثل بابل ، الأمر الذي لا يدع مجالاً للشك في أن الحكاية نشأت أصلاً في بابل ، ثم انتقلت بعد ذلك إلى فلسطين ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن القصتين تتفقان لا في الأحداث الأساسية فحسب ، بل إن وجوه الإتفاق بين القصتين تتعدد حتى تشمل التفصيلات الجزئية ، بحيث لا يمكننا أن نرجع ذلك إلى محض الصدفة (٨) ، أو حتى إلى توارد الأفكار ، يتبين لنا إلى أي حد اعتمدت قصة الطوفان في التوراة على قصص سومر وبابل الخاص بالطوفان .

ولعل سؤال البداهة الآن : إذا كان ذلك كذلك ، وإذا كانت قصة الطوفان في التوراة تعتمد على قصص الطوفان في بلاد النهرين ، فمتى وكيف تم ذلك ؟

يقول (هـ . ج . ويلز) : إنه من الراجح أن العهد القديم (التوراة) قد جمع لأول مرة

---

(١) S.A. Cook, in the Cambridge Ancient History, III, Cambridge, 1965, P. 481.

(٢) George A. Barton, Archaeology and the Bible, 1937, P. 320.

(٣) Jack Finegan, Light from the Ancient Past, the Archaeological Background of Judaism and Christianity, Princeton, 1969, P. 30.

(٤) Merrill. F. Unger, Unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970, P. 372.

(٥) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الثاني — ترجمة محمد بدران — القاهرة ١٩٦١ ص ٣٦٨ .

(٦) جيمس فريزر : المرجع السابق ص ١١٣—١١٩ .

(٧) Sir Leonard Woolley, op. cit., P. 34.

(٨) جيمس فريزر : المرجع السابق ص ١١٣/ ، ١١٥ .

في بابل ، ثم ظهر في التاريخ في القرن الخامس أو الرابع قبل الميلاد ، ذلك لأن اليهود قد جمعوا هناك أثناء السبي البابلي تاريخهم بعضه إلى بعض ، وطوروا تقاليدهم ونموها ، ومن ثم فقد أصبح الذين آبوا إلى أورشليم بأمر كيروش الثاني (٥٥٨—٥٢٩ ق.م) شعباً يختلف اختلافاً عظيماً في الروح والمعارف عن ذلك الشعب الذي خرج منها مأسوراً ، وذلك لأنهم تعلموا الحضارة هناك من البابليين[١] .

ويقدم العلماء الكثير من الأدلة على تأثير الأدب البابلي في التوراة ، وإن كانوا يختلفون على وقت هذا التأثير وطريقته ، فهناك من يرى أن ذلك إنما كان على أيام الأسر البابلي[٢] (٥٨٦—٥٣٩ ق.م) ، بينما يذهب رأي آخر إلى أن ذلك ربما كان في القرن الثامن والسابع ق.م ، أثناء فترة اتصال الإسرائيليين الفعلي بالأشوريين ، ذلك لأن قصة الطوفان هذه — على ما يبدو — لم تكن موجودة في الروايتين المبكرتين في المصدر « اليهوي » ، ذلك لأن واحدة منهما تعتبر أبناء « لامك » الثلاثة من زوجتيه « عادة » و « صلة » أساساً لتقسيمات الجنس البشري ، وأما الأخرى ، فإن اختراع النبيذ — فيما ترى هذه الرواية — لهو أبرز حادث في حياة نوح[٣] .

وهناك رأي ثالث يذهب إلى أن الروايتين — السومرية والبابلية — إنما تسربت إلى بني إسرائيل منذ زمن طويل عن طريق مصادر سومرية وسامية كانت منتشرة في جميع بلاد الشرق الأدنى القديم[٤] ، لدرجة أن أصبحت معها في متناول الأقوام جميعاً ينتحلها هذا أو ذاك ، فيأخذ عنها الرواة كل على هواه ، تمجيداً لذكرى أسلاف ، وقد تكون — في أغلب الأحايين — لا تمت إلى بني إسرائيل أو إلى بني يهوذا أصلا ، إلا أنها صارت بمرور الزمن شائعة مشتركة بين شعوب المنطقة جميعاً[٥] ، فقد مضى الزمن الذي كانت تعالج فيه الأصول الإسرائيلية بعزلة عما كان يتحوطها من مؤثرات ، وإنما تداخلت مع غيرها ، نهباً لتفاعلات اجتاحت المنطقة كلها ، فرسمت مسار التاريخ

---

(١) H.G. Wells, A Short History of the World (Pelican Book), 1965, P. 73, 78.

(٢) S.A. Cook, op. cit., P. 481.

(٣) A. Lods, op. cit., P. 486. وكذا تكوين ٤ : ٢٠—٢٢ ، ٥ : ٢٩ .

(٤) ول ديورانت : المرجع السابق ص ٣٦٨ .

(٥) A. Lods, op – cit, P. 160 – 161

في الشرق القديم جميعاً(١) ، بخاصة في الفترة التي كتب اليهود فيها توراتهم(٢) .

وهكذا يمكننا القول أن كتاب التوراة قد تعرفوا على التراث البابلي ـ عن طريق الروايات الشفوية أو المدونة ـ وذلك إبان قيام دولتهم في كنعان ، وربما أثناء السبي البابلي أو بعده ، ويحق لنا أن نفترض أن العلاقة الوثيقة بين البلدين التي مهد لها الغزو البابلي في فلسطين ، ربما أدت على نحو ما إلى انتشار الأدب البابلي في فلسطين ، كما أدى السبي إلى انتشار الأدب اليهودي في بابل ، وبناء على وجهة النظر هذه ، فإن بعض التفصيلات التي تختلف فيها الرواية الكهنوتية عن الرواية اليهوية ، وتتفق فيها مع الرواية البابلية ، ربما نقلها الكتاب الكهنوتيون مباشرة عن المصادر البابلية ، وهذه التفصيلات تتعلق ببناء السفينة وطلائها بالقار أو القطران اللذين يعدان بصفة خاصة من منتجات بابل ، على أن احتمال معرفة العبريين لحكاية الطوفان الكبير قبل أن يؤخذوا في الأسر بزمن طويل ، وقرب حكايتهم في شكلها من الحكاية البابلية ، هذا الاحتمال تؤيده كل التأييد الحكاية اليهوية في سفر التكوين التي يمكن أن ترجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد والتي لا يمكن أن تتأخر بحال من الأحوال عن القرن الثامن ق.م(٣) .

وأيا ما كان الأمر ، فهناك إجماع بين العلماء على أن هناك تأثيرات بابلية في التوراة ـ فضلا عن التأثيرات المصرية الواضحة(٤) ـ كما أن الأساطير البابلية مثل قصة الطوفان قد وُجدت في بابل قبل أن توجد في التوراة ، ولكنها لم تنقل بطريقة عمياء(٥) .

وربما كانت المقارنة السطحية بين الحكايتين اليهودية والبابلية كافية لأن تؤكد لنا أن كلتا الحكايتين لم تنشأ في الأصل مستقلة ، بل من المؤكد أن إحداهما قد اعتمدت

---

(١) George Mendenhall, Biblical History in Transition in the Bible and the Ancient. Near East (vid n. 23) P. 35.

(٢) راجع مراحل كتابة التوراة في كتابنا إسرائيل ص ٢٤-٤٥ .

(٣) جيمس فريزر : المرجع السابق ص ١١٥ ، ١١٦ .

(٤) راجع أمثلة لهذه التأثيرات في كتابنا إسرائيل ص ١٥١-١٥٩ .

(٥) S.A. Cook, op. cit., P. 481. وكذلك J. Gray,op. cit., P. 104

على الأخرى ، ذلك لأنه من الجلي أن بين الرواية العبرية والبابلية عناصر مشتركة كثيرة ، وربما رجعا كلاهما إلى مصدر واحد(١) .

وإذا ما أردنا أن نقدم أدلة على ذلك ، وجدنا عدة مقابلات بين قصة الطوفان في التوراة ، وبينها في الأدب الميزوبوتامي القديم ، فمن ذلك (أولاً) أن الطوفان هنا وهناك بسبب إلهي ، وذلك حين قررت القوى الآلهية أن تقضي على الجنس البشري عن طريق طوفان عظيم ، ومنها (ثانياً) أن البطل هنا وهناك ينال تحذيراً مما هو مؤكد أن يكون ، فيبني فلكاً للخلاص ، وهذا الفلك يطليه بالقار حتى لا ينفذ إليه الماء ، ويحضر معه حيوانات وطيور ويدخلها إلى الفلك ، فينقذ نفسه وينقذ معه صنوف الكائنات الحية جميعاً ، ومنها (ثالثاً) أن الطوفان هنا وهناك كان لأن القوم قد فسدوا ، وأن الشر قد انتشر بينهم ، وأن المبادئ الخلقية قد لطخت تماماً ، ومن ثم فالطوفان للقضاء على بذرة البشر(٢) .

ومنها (رابعاً) أن بطل القصة هنا وهناك كان رجلاً كريم الخلق ، نقي السريرة فـ « زيوسودرا » في القصة السومرية يوصف بالتقوى ، وبأنه ملك متواضع يخشى الإله ، والأمر كذلك بالنسبة إلى نوح التوراة ، فقد كان « رجلاً بارا كاملاً في أجياله ، وسار مع الله »(٣) ، ومنها (خامساً) أن الأمطار الغزيرة قد هطلت هنا وهناك ، ومن ثم فقد تجمع الطوفان بمقدار كبير ، ودام أياماً يختلف عددها قلة أو كثرة ، وكان في كلتا الحالتين بأسباب طبيعية ، ريح عاتية وأمطار مستمرة ، وعواصف مرعبة في القصة البابلية ، و « انفجار كل ينابيع الغمر العظيم ، وانفتاح طاقات السماء » في القصة التوراتية ، ومنها (سادساً) أن البطل هنا وهناك قد أنقذ هو وعائلته ، وكذا الحيوانات التي صاحبته في السفين ، وإن كان عدد الناجين في القصة البابلية ، أكثر منه في القصة التوراتية ، ومنها (سابعاً) أن السفينة الضخمة — والمكونة من عدة طوابق — تظهر هنا

---

(١) قاموس الكتاب المقدس — جـ٢ — ص ٥٨٤ .

(٢) M. F. Unger, op. cit., P. 372.

(٣) راجع كتابنا اسرائيل ص ١٤٥ .

وهناك ، وإن كانت السفينة البابلية قد احتاجت في تحريكها إلى خمسة أمثال ما احتاجته سفينة التوراة(١) .

ومنها (ثامناً) أن الفلك يستقر على قمة جبل – نيزير (نيصير) في القصة البابلية ، و « أراراط » في التوراة – ومنها (تاسعاً) أن البطل هنا وهناك يرسل طيوراً لاستكشاف حالة الجو ، ولمعرفة مدى انحسار مياه الطوفان عن الأرض ، وفي كلتيهما عادت الحمامة إلى السفين ، لأنها لم تجد مكاناً تستقر فيه ، أما الغراب فلم يعد في كلتا الحالتين ، ومنها (عاشراً) أن البطل هنا وهناك يقدم تقدمة بعد خروجه من السفين شكراً على إنقاذه ، وفي كلتا الحالتين اشتمت الآلهة رائحة الشواء الطيبة ، فسكن غضبها ، وتنسمت رائحة الرضا(٢) .

ومنها (حادي عشر) أن البطل هنا وهناك ينال البركات بعد الكارثة ، فضلاً عن الأمان في المستقبل ، ففي القصة السومرية ، ينفث الإله في « زيوسودرا » روح الخلود ، ويستقر في دلمون ، حيث تشرق الشمس ، أي حيث القوة القاهرة للموت(٣) ، وفي القصة البابلية يصبح « أوتنابيشتم » وزوجه مخلدين ، ويعيشان بعيداً عند مصاب الأنهار ، وفي التوراة يبارك الله نوحاً وبنيه ويعقد معهم ميثاقاً ويمنحهم خشية ورهبة على كل الحيوانات والطيور (٤) .

ومنها (ثاني عشر) أن الإله هنا وهناك يندم على إهلاك البشر بالطوفان ، ففي القصة البابلية يندم أنليل لأنه « أحدث الطوفان دون روية ، وقاد الناس إلى التهلكة » ، بل إن الآلهة نفسها قد لامتـــه على ذلك ، وتمنت لو أرسل أسداً أو ذئباً أو مجاعة أو طاعوناً ، فأهلك بني البشر الآثمين ، « فعلى الآثم وزر إثمه ، وعلى المعتدي وزر

(١) جيمس فريزر : المرجع السابق ص ١١٤ وكذا M.F. Unger, op. cit., P. 372

(٢) Ibid., P. 372. ، وكذا جيمس فريزر : المرجع السابق ص ١١٤ .

(٣) E.O. James, Mythes et Rites dans le Proche-Orient Ancien, Paris, 1960, P. 247.

(٤) تكوين ٩ : ١–٢ ، ١١ .

اعتدائه »(١) ، وفي التوراة يندم الرب كذلك على إحداث الطوفان ويعزم على ألا يلعن الأرض من أجل الإنسان أبداً ، وألا يميت بعد اليوم كل حي ، بل ويقطع الرب على نفسه ميثاقاً « لا يكون طوفان ليخرب الأرض » ، ويضع للميثاق علامة ، هي « القوس في السماء ، فيذكر وعده ولا يأتي بطوفان يغرق الأرض أبداً »(٢) .

ومنها (ثالث عشر) التركيز على الشخص العاشر فيما قبل الطوفان ، ففي القصة البابلية — وفقاً لرواية بيروسوس — أن البطل الذي أنقذ من الطوفان ، إنما كان ملك بابل العاشر ، وفي قصة التوراة إنما هو « نوح » الرجل العاشر في سلسلة العشرة الرؤساء الآباء من آدم إلى نوح(٣)— عليهما السلام — .

وهكذا تتعدد وجوه الشبه بين الحكايتين البابلية والعبرية في مجموعهما ، فإذا شئنا بعد ذلك أن نتعمق التفصيلات ، فإننا نجد أن الحكاية البابلية أقرب إلى الحكاية اليهوية منها إلى الكهنوتية ، فكل من الرواية البابلية واليهوية تعطي أهمية للعدد سبعة ، فقد حذر نوح في الرواية اليهوية من حدوث الطوفان سبعة أيام على التوالي ، كما أخذ معه في السفينة سبعاً من كل صنف من صنوف الحيوانات الطاهرة ثم إن المدة الزمنية بين إطلاقه طائراً وآخر كانت سبعة أيام ، وبالمثل دام الطوفان في الرواية البابلية حتى بلغ قمته سبعة أيام ، كما أن البطل فيها وضع مجموعات أوعية التضحية فوق الجبل ، وكانت كل مجموعة تتكون من سبعة أوعية . على أننا نجد من ناحية أخرى أن الحكاية الكهنوتية في سفر التكوين تقترب من الحكاية البابلية في بعض التفصيلات المحددة ، أكثر من اقتراب الرواية اليهوية منها ، ففي كل من الروايتين ، أصدرت الآلهة تعليمات محددة إلى البطل لبناء السفينة ، ومن ثم فقد بنيت السفينة في كل منهما من عدة طوابق وقسم كل طابق إلى عدة حجرات ، كما أنها طليت في كل منهما بالقار أو القطران ورست

(١) انظر في هذا المجال ما جاء في القرآن الكريم في سورة الأنعام « ولا تزر وازرة وزر أخرى » وما جاء في سورة الزلزلة « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ، ثم انظر ما جاء في التوراة « أنا الرب إله غيور ، أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضي » (خروج ٢٠ : ٥-٦) .

(٢) تكوين ٩ : ٨-١٧ .

(٣) رشيد الناضوري : المرجع السابق ص ٢٤٩ وكذا G.A. Barton, op. cit., P. 320 وكذا J.Finegan, op. cit., P. 3.

كل منهما على جبل ، واستقبل البطلان بركة الإله عند خروجهما(١) .

ولعل أفضل ما نختم به أوجه الشبه بين الروايتين البابلية والتوراتية لقصة الطوفان ، أن نقدم نصوصاً من الروايتين جنباً إلى جنب(٢)، ثم نترك للقارئ الحكم في أمر هذه الشبه .

رقم	ملحمة جلجاميش	التوراة
(١)	يا رجل شوروباك، يا ابن «وبار-توتو» اقتلع بيتك ، وابن الفلك ، دع أملاكك وانقذ حياتك، دع الروح حية ، واحمل على ظهر الفلك بذرة كل شيء حي، الفلك التي ستبنيها تكون أبعادها حسب هذا المقياس .	فقال الله لنوح . .. اصنع لنفسك فلكاً من خشب « جفر » ، ومن كل حي من كل ذي جسد ، اثنين من كل تدخل الفلك لاستبقائها معك حية ، تكون ذكراً وأنثى (تكوين ٦ : ١٣ – ٢٠)
(٢)	وفي اليوم الخامس أقيم هيكلها (السفينة) وكانت مساحة أرضيتها فداناً كاملاً ، وارتفاع كل حائط من جدرانها ١٢٠ (ذراعاً ؟)	ثلاثمائة ذراع يكون طول الفلك، وخمسين ذراعاً عرضه وثلاثين ذراعاً ارتفاعه (تك ٦ : ١٥)
(٣)	وجعلت فيها ست أسطح ، قسمتها إلى سبع طوابق	مساكن سفلية ومتوسطة تجعله (تك ٦ : ١٦)
(٤)	وجعلت أرضيتها تسعة أجزاء	تجعل الفلك مساكن (تك ٦ : ١٤)
(٥)	ست سار من القار صببته في الفرن	وتطليه من داخل ومن خارج بالقار (تك ٦ : ١٤)
(٦)	وحملتها بكل ما أملك من الكائنات الحية ، وكل عائلتي وذوي قرباي أركبتهم الفلك، وكذا حيوان الحقل ووحوش الحقل وكل الصناع أركبتهم معي	فدخل نوح وامرأته وبنوه ونساء بنيه معه إلى الفلك من وجه مياه الطوفان ، ومن البهائم الطاهرة والبهائم التي ليست بطاهرة، ومن الطيور وكل ما يدب على الأرض ، دخل اثنان اثنان إلى نوح إلى الفلك ، ذكراً وأنثى (تك ٧ : ٧ – ٩)

(١) جيمس فريزر : المرجع السابق ص ١١٤ ، ١١٥ .

(٢) انظر كذلك .W. Keller, op. cit., P. 53–57

التـــوراة	ملحمة جلجاميش	رقم
وأغلق الرب عليه (تك ٧ : ١٦)	ودخلت إلى الفلك وأوصدت بابه	(٧)
وحدث بعد السبعة الأيام أن مياه الطوفان صارت على الأرض ... في ذلك اليوم انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء (تك ٧ : ١٠-١١) .	ومع انبثاق الفجر ، ظهرت من الأفق غمامة سوداء وأرعـد «أداد» من داخلها . . . ووصل الذعر من أداد عنان السماء ، وقد حول النور إلى ظلام	(٨)
وكان الطوفان أربعين يوماً على الأرض ، وتكاثرت المياه ... وتعاظمت المياه وتكاثرت جداً على الأرض ... فتغطت جميع الجبال الشامخة التي تحت كل السمـــاء (تك ٧ : ١٧-١٩) .	واستمرت ريح الفيضان تهب ستة أيام وست ليال وعاصفة الجنوب تكتسح الأرض	(٩)
وأجاز الله ريحاً على الأرض فهدأت السماء (تك ٨ : ١)	وفي اليوم السابع سكنت عاصفة الجنوب	(١٠)
وانسدت ينابيع الغمر وطاقات السماء، فامتنع المطر من السماء، ورجعت المياه عن الأرض رجوعاً متوالياً ، وبعد مئة وخمسين يوماً نقصت المياه (تك ٨ : ٢-٣)	عن الحرب التي شنتها كجيش ، وهدأ البحر ، وسكنت العاصفـــة وتوقف الطوفان	(١١)
فمات كل ذي جسد كان يدب على الأرض ... وجميع الناس (تك ٧ : ٢١).	وتحول الناس إلى طين ، وتشققت الأرض كأنها جرة	(١٢)
وفتح نوح طاقة الفلك التي كان قد عملها (تك ٨ : ٦)	وفتحت طاقة في الفلك وسقط الضوء على وجهي	(١٣)
واستقر الفلك في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر على جبل أراراط (تك ٨ : ٤) .	واستوت الفلك على جبل نيصير ، وأمسك جبل نيصير بالفلك ، ولم يدعها تتحرك .	(١٤)

ويقدم لنا « الدكتور جون إلدر » خلافات بين القصتين ، ففي التوراة يحدث الطوفان كعقاب من الله لمحو الأشرار ، وفي القصة البابلية يحدث الطوفان لهوى في نفس

الآلهة القساة ، وفي التوراة يخلص نوح من معه لأنه إنسان بار ، وفي القصة البابلية ينال البطل النجاة لأن له نصيراً من بين الآلهة الكثيرة ، فقصة التوراة تقدم لنا ديانة توحيدية ، ولكن البابليين يقدمون لنا أحط دركات الديانات التي تنادي بتعدد الآلهة ، وهكذا نرى الفارق العظيم بين فكرة الوحي السامية في قصة التوراة ، وبين الفكرة الخرافية المليئة بالخيالات والأوهام والمتناقضات في القصة البابلية ، مع أنها خلاصة أرقى ما وصل إليه الفكر البشري في دولة ساميّة متحضرة(١).

والحق أن ما يقوله الدكتور « جون إلدر » ليس هو الحق كل الحق ، ذلك لأن الطوفان كان في القصتين عقاباً من الإله لمحو الأشرار ، فكما أخبر نوح بأن الطوفان كان لأن الرب أراد أن يمحو الإنسان الذي خلقه لأن شره كثر في الأرض(٢) ، فكذلك أخبر « زيوسودرا » أن الآلهة أرادت بالطوفان أن « تقضي على بذرة الشر » ، وكما أن نوحاً قد أنجي لأنه إنسان بار ، فالأمر كذلك بالنسبة إلى « زيوسودرا » ، لأنه كان ملكاً صالحاً تقيا ، يخشى الإله ، كما كان يتلهف شوقاً إلى الاتصال بالوحي الإلهي في الأحلام وفي تلاوة التعاويذ والأدعية — وهي صفات لو كان الدكتور إلدر غير متعصب في حكمه ، لعرف أن التوراة لم تسبغها على نوح ، الأمر الذي لم يظهر بما يتفق ومكانة النبي الكريم في غير القرآن الكريم — بخاصة إذا علمنا أن القصة السومرية — وليست قصة التوراة — هي التي تقدم لنا بطل الطوفان (زيوسودرا) وهو يجلس إلى جانب حائط ، يستمع إلى صوت وحي إلهه ، وهو يبلغه القرار بإهلاك البشر(٣).

وأما أن قصة التوراة تقدم لنا ديانة توحيدية ، وأن الأخرى ليست كذلك ، فذلك أمر نتفق فيه معه بحذر ، كما أن أحداً لم يقل — بل حتى لم يفكر — في أن ديانة السومريين — والبابليين من بعدهم — كانت ديانة توحيدية ، ومع ذلك ألا يرى « الدكتور جون إلدر » أن قصة التوراة لا تقدم لنا ديانة توحيدية — كما نعرف التوحيد الآن — . صحيح أن ديانة السومريين والبابليين ديانة وثنية ، بل ومغرقة في الوثنية كذلك ، ولكن صحيح

---

(١) جون إلدر : الأحجار تتكلم : ص ٣٤ ، ٣٥ وانظر كذلك .M.F. Unger, op. cit., P. 372–373

(٢) تكوين ٦ : ٥–١٢ .

(٣) صمويل نوح كريمر : من ألواح سومر – ترجمة طه باقر ص ٢٥٤–٢٥٦ ، القاهرة ١٩٥٧ .

كذلك – رغم أن دعوة موسى عليه السلام كانت دعوة توحيد ، وأن كليم الله دعا إلى عبادة الله الواحد الأحد – أن توراة اليهود المتداولة اليوم ، لا تقدم لنا بين صفحاتها ما يتفق ودعوة الوحدانية ، وتنزيه الله – جل وعلا – عن صفات البشر(١) .

وإلا فهل من التوحيد – الذي يريد لنا الدكتور إلدر أن نفهمه من توراة اليهود – أن يوصف الله – جل وعلا – بالحزن والأسف لخلقه الإنسان ، كما جاء في سفر التكوين(٢) (٦ : ٦–٧) ، وهل من التوحيد أن يكون لله – جل جلاله – أولاد منذ بدء الخليقة ، وأنهم قد فتنوا بجمال بنات الناس ، « فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا » ، ثم تحدر من هؤلاء وأولئك نسل رزقه الله بسطة في الجسم ، وهم الجبابرة الذين سكنوا في الأرض قبل الطوفان(٣) ، وهل من التوحيد أن تكون قوس قزح(٤) التي تظهر في الأفق غبَّ المطر ، أنشأها الله لتـكون تذكرة له بألا يعود إلى إغراق الأرض أبداً(٥)، وهل من التوحيد أن يوصف الله – سبحانه وتعالى – في التوراة(٦) ، بأن نفسه ترتاح من رائحة الدخان المتصاعد من المحرقات ، وأنه يغضب كل الغضب إذا لم تقدم له في الصورة التي يرتضيها(٧) .

رابعاً : قصة الطوفان ، كما يرويها القرآن الكريم :

يزخر القرآن الكريم بالكثير من القصص الذي ساقه الله لتأكيد قيم دينية شتى ،

---

(١) راجع في ذلك صفات الله – سبحانه وتعالى – كما تقدمها التوراة (كتابنا إسرائيل ص ٥٧–٦٩) .
(٢) لبيان أمثلة كثيرة ترددت في التوراة في هذا الصدد انظر كتابنا « اسرائيل » ص ٦٤–٦٥ .
(٣) تكوين ٦ : ١–٥ .
(٤) و « قزح » هذا من أسماء الشيطان ، ولهذا فقد نهى الحبيب المصطفى – صلوات الله وسلامه عليه – عن هذه التسمية ، مؤثراً تسميتها بقوس الله (راجع ص ٤١ من كتاب محنة التوراة على أيدي اليهود لمؤلفه عصام حفني ناصف) .
(٥) تكوين ٩ : ١٣–١٥ .
(٦) تكوين ٨ : ٢٠–٢١ ، لاويون ١ : ١–٩ ، ١٠ : ١–٢ ، وكذلك ابراهيم خليل : إسرائيل والتلمود ص ٨٦ ، ٨٧ .
(٧) ويرد القرآن الكريم على مزاعمهم هذه بقوله تعالى : « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ، ولكن يناله التقوى منكم ، كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين» (الحج : آية ٣٧) وإذ يقول عز وجل في هدي الحج من الأنعام : « فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير » (الحج : آية ٢٨) .

فهو يحارب الوثنية ويدعو إلى الوحدانية ، ويؤكد المعاني الخلقية السامية ، ويضرب الأمثال ، ثم هو يُطمئن صاحب الرسالة — صلوات الله وسلامه عليه — ويواسيه في الشدائد ، مذكراً إياه بما لاقه إخوة كرام له من عنت الضالين وبغي الكافرين ، فما وهنوا وما استكانوا ، وما ضعفوا وما تخاذلوا ، ولكنهم صبروا وصابروا ، ومن هنا يخاطب الله رسوله الكريم في كتابه الكريم ، « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين(١) » .

والقرآن الكريم في كل ما جاء به من قصص — وإن لم يكن كتاب تاريخ يقدم لنا تفصيلات عن الأحداث التي يتعرض لها ، إلا في عرض القصة حيث يقتضيه السياق — تعليم للمصلحين ، وتربية للهداة ، ولكنه في كل ذلك « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد »(٢) ثم « إن هذا لهو القصص الحق »(٣) و « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون »(٤) .

وإن في القرآن الكريم لقصصاً شتى من غير قصص الدعوة ، أو قصص الجهاد في تبليغ الرسالة ، ولكنها تراد كذلك لعبرتها ، ولا تراد لأخبارها التاريخية ، ومنها قصة يوسف ، وكذا قصة إسماعيل عليهما السلام ، فقصة يوسف قصة إنسان قد تمرس منذ طفولته بآفات الطبائع البشرية ، من حسد الإخوة إلى غواية المرأة إلى ظلم السجن ، إلي تكاليف الولاية وتدبير المصالح في إبان الشدة والمجاعة ، وقصة إسماعيل تتخللها هذه التجارب الإنسانية من عهد الطفولة كذلك ، فيصاب بالغربة المنقطعة عن العشيرة وعن الزاد والماء ، وإن كان الأخطر من ذلك كله أن تكتب عليه التجارب الإنسانية ضريبة الفداء ، وهي في مفترق الطرق بين الهمجية التي كانت — في معظم مجتمعات الشرق القديم — لا تتورع عن الذبائح البشرية ، وبين الإنسانية المهذبة التي لا تأبى

---

(١) سورة هود : آية ١٢٠ .
(٢) سورة فصلت : آية ٤٢ .
(٣) سورة آل عمران : آية ٦٢ .
(٤) سورة يوسف : آية ١١١ .

الفداء بالحياة ، ولكنها تتورع عن ذبح الإنسان ، ثم يكتب لهذا الغلام الوحيد بواد غير ذي زرع عند البيت المحرم ، أن تنمي إليه أمة ذات شعوب وقبائل تتحول على يديها تواريخ العالم على مدى الأيام(١) .

على أن أبرز قصص الأنبياء في القرآن الكريم قصتان مسهبتان في أجزائه لأنهما ترويان نبأ الرسالة بين أعرق أمم الحضارة الإنسانية ، وهما أمة وادي النهرين وأمة وادي النيل ، ومن أجل ذلك كانت قصة إبراهيم وموسى عليهما السلام أوفى القصص بين جميع قصص الأنبياء ، وكانت الثورة فيهما على ضلال العقل في العبادة جامعة لأكثر العبادات المستنكرة في الزمن القديم(٢) .

وفي قصة نوح — عليه السلام — نرى كيف ينقاد الجهلاء للأمر والسطوة ، ولا ينقادون للحجة والدليل ، ويريدون من صاحب الدعوة أن يكون ملكاً ، أو تكون عنده خزائن الأرض ، ويقولون له « قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين »(٣) ، كما نرى كذلك أن المسيطرين على أقدار القوم يكرهون التغيير ، ويتشبثون بالقديم ، ويأخذون على النبي الكريم أن يتبعه أناس من غير ذوي السيادة والجاه « وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي ، وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين »(٤) .

وأما الطوفان — موضوع هذه الدراسة — فلقد تحدث القرآن الكريم عنه ، حين تعرض لقصة نوح عليه السلام ، في سور كثيرة منها سورة الأعراف (٥٩—٦٤) ويونس (٧١—٧٣) وهود (٢٥—٤٩) والأنبياء (٧٦—٧٧) والمؤمنون (٢٣—٣٠) والشعراء (١٠٥—١٢٢) والعنكبوت (١٤—١٥) والصافات (٧٥—٨٢) والقمر (٩—١٧) ثم سورة كاملة ، هي سورة نوح ، فضلاً عن ذكره في مواضع متفرقة من

---

(١) عباس العقاد : الإسلام دعوة عالمية — القاهرة ١٩٧٠ ص ٢١٨—٢١٩ ، وانظر كذلك قصة التضحية البشرية في كتابنا إسرائيل ص ٢٠٧—٢٠٩ ، قصة يوسف في مصر ص ٢٢٥—٢٤٥ .
(٢) عباس العقاد : المرجع السابق ص ٢١٨ .
(٣) سورة هود : آية ٣٢ .
(٤) سورة هود : آية ٢٧ .

القرآن الكريم ، كما في سورة النساء والأنعام والتوبة وإبراهيم والإسراء والأحزاب و «ص» وغافر والشورى و « ق » والذاريات والنجم والحديد والتحريم .

وفي كل هذه السور الكريمة ، كان نوح – شأنه في ذلك شأن غيره من المصطفين الأخيار – يدعو قومه إلى عبادة الله الواحد القهار ، « وكان قومه قد صوروا بعض الصالحين منهم ، ثم وضعوا لهم الصور والتماثيل لإحياء ذكرهم والاقتداء بهم ، ثم عبدوا صورهم وتماثيلهم »(١) ، واستمر نوح في دعوته ، يحثهم ليل نهار على عبادة الله تعالى وحده ، إلا أن القوم « جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً »(٢) ، إذ كبر عليهم أن يكون داعي الهدى ، وحامل لواء التوحيد ، واحداً منهم ، لا يمتاز عليهم بإمارة ، ولا يفضلهم بغنى أو ثروة ، كما أنفوا أن ينضموا إلى جماعة المهتدين من الضعفاء .

ويبذل النبي الكريم الجهد كل الجهد ، بغية أن يؤمن القوم بربهم ، وأن يكفوا عن عبادة الأصنام ، ويطول الزمن ، ونوح يغاديهم بالنصح ويراوحهم بالعظة سرا وعلانية ، ومع ذلك كله ، فالذين أجابوا الدعوة ، إنما كانوا قلة نادرة ، فيشتكي نوح إلى ربه عجزه وقلة حيلته ، وما يلاقيه على أيدي السفهاء من قومه من عنت وهوان ، فيناديه ربه « لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ، فلا تبتئس بما كانوا يفعلون» (٣) ، ويدعو نوح ربه « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا» (٤) .

ويجيب العليّ القدير دعوة النبي الكريم ، فيأمره أن يصنع الفلك « حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور ، قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ، ومن آمن وما آمن معه إلا قليل »(٥) ، وهكذا أنقذ الله نوحاً ومن آمن معه ، وأهلك

(١) محمد رشيد رضا : تفسير المنار ، الجزء السابع ص ٤٥٤ وما بعدها ، الجزء الثامن ص ٤٣٦ ، القاهرة القاهرة ١٩٧٤ (طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب) ، وكذلك : صحيح البخاري .

(٢) سورة نوح : آية ٧ .

(٣) سورة هود : آية ٣٦ .

(٤) سورة نوح : آية ٢٧ ، ٢٨ .

(٥) سورة هود : آية ٤٠ .

الكافرين من قومه « وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء ، وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين »(١) ثم أمر الله نوحاً أن « اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم »(٢) .

هذه هي الخطوط الرئيسية بإيجاز شديد لقصة نوح عليه السلام — كما أخبر عنها ربي جلّ جلاله في القرآن الكريم — وهي هنا إذا ما قورنت بغيرها من القصص الذي تعرض لقصة الطوفان ، سواء أكان ذلك من القصص الإنساني أو السماوي ، لبان لنا بوضوح الفرق الشاسع — بغير حدود — بين ما أنزله الله على مولانا وسيدنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وبين ما كتبته أقلام ناقصة معرفة أحياناً ، ومتعصبة أحياناً أخرى ، وساذجة في أغلب الأحايين ، وإن كان بعضها يزعم لها أصحابها ما يزعمون من قداسة .

والقرآن الكريم حين تناول قصة الطوفان تناولها بما يتفق وأغراض القصص القرآني ، دونما حاجة إلى تفصيلات لا يقتضيها سياق القصة ، ثم جاء المفسرون والمؤرخون الإسلاميون وحاولوا تفسير هذه القصة بإسهاب وتفصيل ، إلا أن هذا التفصيل لعبت فيه الإسرائيليات دوراً عكّر صفوها في كثير من الأحايين ، فيرون مثلاً أن الله أمر نوحاً أن يغرس شجراً ليصنع منه السفينة ، وأن النبي الكريم قد غرس هذا الشجر ، ثم انتظره مائة عام ، ثم نجره في مائة أخرى على رواية ، وفي أربعين على رواية أخرى(٣) ، ولست أدري من أين جاءوا بهذا الأرقام ، وما هو المصدر الذي اعتمدوا عليه .

والأمر كذلك بالنسبة إلى طول السفينة ، فهي ثلاثمائة ذراع في عرض خمسين

---

(١) سورة هود : آية ٤٤ .

(٢) سورة هود : آية ٤٨ .

(٣) الإمام أبو الفداء إسماعيل بن كثير : — البداية والنهاية في التاريخ جـ١ (القاهرة ١٩٣٢) ص ١١٠ ، وكذلك الإمام القرطبي : الجامع لأحكام القرآن — دار الشعب ١٩٧٠ — ص ٣٢٥٩ ، وكذلك الإمام الطبري : تاريخ الرسل والملوك جـ١ ص ١٨١ (حيث يذكر رواية ثالثة تذهب إلى أنها أربعمائة عام) .

ذراعاً — فيما ترى التوراة على رأي ، وفيما يرى ابن عباس على رأي آخر — وهي ستمائة ذراع في عرض ثلاثمائة ، فيما يرى الحسن البصري ، وهي ألف ومائتا ذراع في عرض ستمائة ، فيما يرى ابن عباس ، وهي ثمانون ذراعاً في عرض خمسين على رواية رابعة ، وهي ألفا ذراع في عرض مائة ذراع على رواية خامسة ، بل وذهبت رواية سادسة إلى أنها سفينة عظيمة لم يكن لها نظير من قبل ، ولن يكون لها نظير من بعد ، هذا فضلاً عن أن الرواية قد تنسب أحياناً إلى شخص معين ، بينما تنسب في مرة ثانية إلى شخص آخر ، وإن كانت الروايات جميعاً تكاد تتفق على أن ارتفاع السفينة إنما كان ثلاثين ذراعاً — وهو رأي التوراة — إلا واحدة تنسب إلى الكلبي وقتادة وعكرمة رأت أنها ثلاثمائة ذراع(١) ، وهكذا بات من الصعب علينا أن نصل إلى رأي نطمئن إلى أنه القول الفصل ، ذلك لأن هذه الروايات لا تقدم لنا دليلاً على صحتها وضعف غيرها حتى نستطيع أن نختار الأقوى حجة منها .

وهناك رواية تنسب إلى ابن عباس — رضي الله عنه — تقسم السفين إلى ثلاثة بطون ، الأسفل للوحوش والسباع والدواب ، والأوسط للطعام والشراب ، والأعلى لنوح ومن معه ، فضلا عن جسد آدم معترضاً بين الرجال والنساء — والذي دفنه بعد ذلك في بيت المقدس — كما كان معهم إبليس في الكوثل (مؤخر السفينة) (٢) .

واختلف المؤرخون الإسلاميون كذلك في أمر التنور ، فهناك من يذهب إلى أنه « وجة الأرض » أي صارت الأرض عيوناً تفور ، حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار(٣) ، وهناك من ذهب إلى أنه تنور الخبز ، وكان من حجارة لحواء حتى صار لنوح ، بينما ذهب رأي ثالث إلى أنه مسجد الكوفة ، وذهب رأي رابع — ينسب

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ص ١٠٩ ، ١١٠ ، وكذلك الطبري : المرجع السابق ص ١٨٠ — ١٨٤ ، وكذلك القرطبي المرجع السابق ص ٣٢٥٩ ، وكذلك ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ١ (بيروت ١٩٦٥) ص ٧٠ .

(٢) القرطبي : المرجع السابق ص ٣٢٦ ، وكذلك محمد بن سعد كاتب الواقدي — الطبقات الكبرى جـ١ (دار التحرير — القاهرة ١٩٦٨) ص ١٧ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ص ١١١ ، تفسير القرآن العظيم جـ٤ (دار الشعب — القاهرة ١٩٧١) ص ٢٥٤ .

إلى الإمام علي رضي الله عنه –إلى أنه فاق الصبح وتنوير الفجر– أي إشراقة وضياؤه – ورغم أن هذه الرواية – فيما يرى ابن كثير – غريبة ، فإنها الرواية الأكثر قبولاً ، فيما نظن ، فضلاً عن أنها الرواية الوحيدة التي تتفق إلى حد ما مع النصوص القديمة ، وأما مكان التنور ، فهو موضوع خلاف كذلك ، فهناك من يراه في الهند ، وهناك من يراه في الكوفة ، بينما ذهب رأي ثالث إلى أنه في الجزيرة ، بل ويتجه رأي رابع إلى أن هذه الآراء جميعاً ليست بمتناقضة ، لأن الله عز وجل أخبرنا أن الماء جاء من الأرض ومن السماء « ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ، وفجرنا الأرض عيوناً » فهذه الأقوال تجتمع في أن ذلك كان علامة(١) .

ومما هو جدير بالذكر أن « ابن بطوطة » يذكر أن بالكوفة مسجداً صغيراً محلقاً عليه أيضاً بأعواد الساج ، يذكر أنه الموضع الذي فار منه التنور ، إيذاناً بطوفان نوح عليه السلام ، وفي ظهره خارج المسجد بيت يزعمون أنه بيت نوح عليه السلام ، وإزاءه بيت يزعمون أنه متعبد إدريس عليه السلام ، ويتصل بذلك فضاء متصل بالجدار القبلي يقال إنه موضع إنشاء سفينة نوح عليه السلام ، هذا ويذكر « ستون لويد » – وهو من كبار علماء الآثار الآشورية – أنه بالجامع الكبير بالكوفة مقصورة في باطن الأرض تعرف باسم السفينة حيث يعتقد المسلمون أن الفلك قد استقر بها ، ويرى أن موقعها على صخرة مطلة على ساحل البحر القديم أفضل مكان بلا شك لرسو السفينة من قمة جبل « أرارات » ، ويرى الدكتور محمد عبد القادر ، أننا إذا نظرنا إلى خريطة العراق ، لوجدنا أن الكوفة تتوسط المنطقة التي حدث بها الطوفان ، والممتدة تقريباً من أبو حبة (سيبار) في الشمال إلى أبو شهرين (أريدو) في الجنوب ، كما أنها قريبة نسبياً من فارة (شوروباك) المذكورة في القصة السومرية والتي كانت يوماً ما على الفرات ، فالقصة المتواترة في الكوفة والتي رواها ابن بطوطة وغيره من الرحالة – وكانوا لا يعلمون عندما كتبوا بالقصص السومري والأكدي القديم – كان لها أساس قوي من الصحة(٢) .

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ص ١١١ ، تفسير القرآن العظيم ص ٢٥٤ ، وكذلك الطبري : المرجع السابق ص ١٨٦ – ١٨٧ . وكذلك ابن الأثير : المرجع السابق ص ٧٠ .

(٢) محمد عبد القادر : المرجع السابق ص ٩٧ ، وكذلك Seton Lioyd, Foundations in the Rust (Pelican)1955, P. 30.

وقد اختلف المؤرخون الإسلاميون كذلك في عدد من ركب الفلك ، فذهب رأي إلى أنهم ثمانون نفساً(١) ، وذهب رأي آخر إلى أنهم اثنان وسبعون نفساً ، بينما ذهب رأي ثالث إلى أنهم كانوا ثلاثة عشرة ، وذهب رأي رابع إلى أنهم كانوا عشرة فقط ، بينما ذهب رأي خامس إلى أنهم كانوا ثمانية — نوح وامرأته وبنوه الثلاثة ونساؤهم — وأخيراً ذهب رأي سادس إلى أنهم سبعة فقط(٢) .

والأمر كذلك بالنسبة إلى مدى ارتفاع الماء على أعلى جبل في الأرض ، فذهب رأي إلى أن ذلك إنما كان خمسة عشر ذراعاً ، وذهب رأي آخر إلى أنها ثمانون ذراعاً ، وأنه لم يبق من الأحياء عين تطرف إلا نوح ومن معه في الفلك ، وإلا عوج بن عنق ، فيما يزعم أهل التوراة(٣) ، وفي الواقع إن هذه رواية متأخرة ليست في التوراة ، فضلاً عن أنها تتعارض مع رأي هؤلاء العلماء في أن الطوفان عام ، كما أن طول عوج بن عنق — إن كان هناك من يسمى عوج بن عنق — يتعارض مع ما جاء في الصحيحين عن المصطفى — صلوات الله وسلامه عليه — من « أن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً ، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن » وقوله — صلى الله عليه وسلم — « لو رحم الله من قوم نوح أحداً ، لرحم أم الصبي » .

ويذهب المفسرون إلى أن الطوفان قد غطى كل بقاع الأرض إلا الكعبة الشريفة ، ذلك لأن سفينة نوح — فيما يرون — قد طافت بالأرض كلها في ستة أشهر لا تستقر على شيء ، حتى أتت الحرم فلم تدخله ودارت بالحرم أسبوعاً ، ورفع الله البيت الذي بناه آدم عليه السلام — وهو البيت المعمور والحجر الأسود — على جبل أبي قبيس(٤)،

---

(١) راجع راوية ياقوت الحموي (معجم البلدان ٣ : ٢٣) عن قرية الثمانين وأنها عند جبل الجودي قرب جزيرة ابن عمر التغلبي فوق الموصل .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ص ١١١-١١٢ ، تفسير القرآن العظيم ص ٢٥٥ وكذلك القرطبي ص ٣٢٦٣ ، وكذلك الطبري ص ١٨٧-١٨٩ ، وكذلك الطبقات الكبرى ص ١٨ ، وكذلك ابن الأثير ص ٧٠ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ص ١١٢ ، وكذلك الطبري ص ١٨٥ ، وكذلك الطبقات ص ١٧ ، وكذلك ابن الأثير ص ٧٠ .

(٤) الطبري ص ١٨٥ ، وكذلك الطبقات ص ١٧ .

وذهب رأي آخر إلى أن الله أمر جبريل فرفع الكعبة إلى السماء الرابعة ، وخبأ الحجر الأسود بجبل أبي قبيس ، فبقي فيه إلى أن بنى إبراهيم البيت فأخذه فجعله في موضعه(١) ، بينما ذهب رأي ثالث إلى أن البيت لم يجيء في خبر صحيح عن المعصوم أنه كان مبنيا قبل أيام الخليل ، وأن الروايات التي ذهبت إلى أن آدم قد نصب عليه قبّة ، وأن الملائكة قالوا قد طفنا قبلك بهذا البيت ، وأن السفينة قد طافت به أربعين يوماً (أو أسبوعاً) ، كل هذه الأخبار مأخوذة عن بني إسرائيل(٢) .

والواقع أن هناك خلافاً على وقت بناء الكعبة ، فهناك رواية تنسب بناءها إلى الملائكة قبل أن يبرأ الله عز وجل الأرض ، وقبل أن يخلق آدم بألفي سنة(٣) ، وهناك رواية أخرى تنسب بناءها إلى آدم عليه السلام(٤) ، بينما ينسب ابن قتيبة — في رواية ثالثة — بناء الكعبة إلى شيث بن آدم(٥) ، وليس في كل هذا خبر صحيح يعول عليه وإنما اقتبسوه من مجمل الآية « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل » ، فظاهر التعبير أن القواعد كانت موجودة ، وأن كل عمل إبراهيم وإسماعيل إنما كان رفعها وليس تأسيسها ، وليس في لغة العرب ما يمنع من أن يراد برفع القواعد ابتداء بناء البيت ، على ضرب من التوسع في التعبير(٦) .

وأما الرواية الرابعة — وهي ما نميل إليه ونرجحه ، فهي رواية للطبري(٧) — عن سعيد بن جبير عن ابن عباس — تقول إن إبراهيم جاء فوجد إسماعيل يصلح نبلا له من وراء زمزم ، فقال إبراهيم : يا إسماعيل إن ربك قد أمرني أن أبني له بيتاً ، فقال له إسماعيل : فأطع ربك فيما أمرك ، فقال إبراهيم : قد أمرك أن تعينني عليه ، قال : إذاً أفعل ، فقام معه ، فجعل إبراهيم يبنيه وإسماعيل يناوله الحجارة ، ويقولان « ربنا

---

(١) ابن الأثير : المرجع السابق ص ٧٠ .
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ص ١٦٣ .
(٣) العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار جـ١ ص ٩٣ (طبعة دار الكتب ١٩٢٤م) .
(٤) نفس المرجع السابق ص ٩٣ ، وراجع : علي حسني الخربوطلي : الكعبة على مر العصور ص ٧ ، القاهرة ١٩٦٧ .
(٥) ابن قتيبة : المعارف ص ١٠ (المطبعة الحسينية ، ١٩٣٤) .
(٦) أحمد حسن الباقوري : مع القرآن — القاهرة ١٩٧٠ ص ٤٧ .
(٧) الطبري : المرجع السابق ص ٢٥٩ — ٢٦٠ .

تقبل منا إنك أنت السميع العليم(١) » ، فلما ارتفع البنيان وضعف الشيخ عن رفع الحجارة ، قام على حجر – وهو مقام إبراهيم – فجعل يناوله ويقولان ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، فلما فرغ إبراهيم من بناء البيت الذي أمره الله عز وجل ببنائه ، أمره الله أن يؤذن في الناس بالحج ، فقال له « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق »(٢) ، وهكذا بنى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام « الكعبة المشرفة » بيتاً لله تعالى ، ليكون رمزاً إلى الحقيقة الكبرى في الوجود ، حقيقة التوحيد ، توحيد التوجه إلى الله الواحد الأحد ، وتضرع خليل الله ودعا ربه ، وأمن إسماعيل ، أن يجعل الله أفئدة من الناس تهوي إلى ذريته في جوار هذا البيت المحرم(٣)، « ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون»(٤) .

وإذا كان صحيحاً ما ذهب إليه بعض المؤرخين من أن إسماعيل – عليه السلام – كان في الثلاثين من عمره يوم أمر الله عز وجل إبراهيم ببناء الكعبة (٥) ، فإن بناء الكعبة حينئذ يكون في حوالي عام ١٨٢٤ ق.م ، على أساس أن إسماعيل قد ولد في عام ١٨٥٤ ق.م ، (وتوفي عام ١٧١٧ ق.م) على أساس أنه ولد لإبراهيم وهو في السادسة والثمانين من عمره ، وأن إبراهيم قد عاش في الفترة (١٩٤٠ – ١٧٦٥ ق.م)(٦) ، وهو تاريخ متأخر جدا عن طوفان نوح عليه السلام .

هناك روايات كثيرة عن دخول الحيوانات والطيور إلى السفين ، ومن أسف أنها روايات أشبه بالأساطير منها بحقائق التاريخ ، ومن أمثلة ذلك دخول إبليس إلى السفينة في ذيل الحمار(٧) ، بناء على كلمة صدرت من النبي الكريم دون أن يقصد منها ما

---

(١) سورة البقرة : آية ١٢٧ .
(٢) سورة الحج : آية ٢٧ .
(٣) محمد الصادق عرجون : محمد صلى الله عليه وسلم من نبعته إلى بعثته – القاهرة ١٩٧١ ص ١٧ .
(٤) سورة إبراهيم : آية ٣٧ .
(٥) علي حسني الخربوطلي : المرجع السابق ص ١٦ .
(٦) راجع في ذلك كتابنا إسرائيل ص ١٧٧ ، ٢٠٢ ، وانظر كذلك تكوين ١٢ : ٤ ، ١٦ : ١٦ ، ٢٥ : ٧ ، ١٧ .
(٧) الطبري : المرجع السابق ص ١٨٤ .

حدث ، والرواية التي تذهب إلى أن « عوج بن عنق » لم يغرق في طوفان نوح ، وأنه قد عاش من قبل عهد نوح ، وإلى أيام موسى ، وأنه كان جباراً عنيداً ، كافراً متمرداً ، وأن أمه عنق بنت آدم قد ولدته من زنا ، وأنه كان طويلا بدرجة لا يمكن أن تحدث ، حتى إنه كان يأخذ السمكة من قرار البحار ثم يشويها في عين الشمس ، وأن طوله كان ٣٣٣٣⅓ ذراعاً ، وأنه كان يستهزئ بسفينة نوح وبصاحبها وأنه كان يسميها القصيعة ، والواقع أن هـــذه الأسطورة لا تستحق حتى أن تناقش ، ولكني أتساءل مع ابن كثير ، إذا كان الأمر كذلك ، فكيف يمكن أن يقبل العقل أن يهلك ابن نوح ، ولا يرحم من أمته حتى صبيانها ، ثم يترك هذا الجبار الباغي ابن الزنى ، ثم كيف تتفق هذه الخرافة مع الآيات الكريمة التي استخلصوا منها أن الطوفان كا قد قضى على كل ما ومن في الدنيا ، ثم حديث سيدنا ومولانا الحبيب المصطفى — صلوات الله وسلامه عليه — عن طول آدم ، وأنه كان ٦٠ ذراعاً ، وأن الناس من بعده كانوا أقل منه طولا(١) .

ومن هذا النوع من الروايات كذلك ، رواية تذهب إلى أن السيد المسيح — عليه السلام — بناء على رغبة الحواريين ، قد أعاد « حام بن نوح » إلى الحياة ، ثم سأله عن فلك نوح ، فأخبر أن طولها كان ألف ذراع ومائتي ذراع ، وأن عرضها ستمائة ذراع ، ومن هذا النوع كذلك رواية تذهب إلى أنه لم يكن في الأرض قبل الطوفان نهر ولا بحر ، وأن مياه البحار إنما هي من بقية الطوفان ، ومن هذا النوع كذلك رواية تذهب إلى أن القوم بعد أن استوت بهم السفينة على الجودي هبطوا إلى أسفله وابتنوا قرية سموها ثمانين ، وأنهم قد أصبحوا ذات يوم ، وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة — إحداها اللسان العربي — فكان بعضهم لا يفهم كلام بعض ، وكان نوح عليه السلام يعبر عنهم(٢) .

وليس هناك باحث منصف يستطيع أن ينكر أثر الإسرائيليات في هذه الروايات التي تجنح إلى الخيال أحياناً وإلى منافاتها للعقيدة الإسلامية الصحيحة أحياناً أخرى ،

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ص ١١٤ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ١١٦ ، تفسير القرآن العظيم ص ٢٥٤-٢٥٧ ، وكذلك القرطبي المرجع السابق ص ٣٢٥٩-٣٢٦٦ .

وإلى تعارض بعضها مع بعضها الآخر في أحايين كثيرة ، وإذا ما أردنا أن نقدم الدليل على ذلك ، وأخذنا على سبيل المثال قصة تبلبل ألسنة الناجين من الطوفان ، لوجدنا أثر التوراة واضحاً فيها — إن لم تكن منقولة عنها أو تكاد — ذلك أن التوراة حاولت أن تقدم تفسيراً ساذجاً غير علمي لاختلاف اللغات والأجناس ، فروت أن الناجين من الطوفان أرادوا أن يبنوا برجاً عالياً ، بغية الصعود إلى الله — عز وجل — في علياء سمائه ، إذ كانوا يحسبون السماء أشبه شيء بلوح زجاجي يعلو على الأرض بضع مئات من الأمتار ، فخشي الله شرهم واحتاط لنفسه فهبط إلي الأرض وبلبل ألسنتهم فتفرقوا شذر مذر ، ومن ثم فقد سميت المدينة « بابل » لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض(١) .

ولعل سؤال البداهة الآن : هل عمّ الطوفان الأرض كلها ، أم كان طوفاناً خاصا بقوم نوح دون سواهم من العالمين ؟

يكاد يتجه غالبية المؤرخين الإسلاميين وعلماء التفسير إلى أن طوفان نوح كان طوفاناً عاما ، وأنه أهلك كل من وما على وجه الأرض ، ولم يبق عليها إلا نوح ومن معه ، وإلا عوج بن عنق ، وأن السفينة طافت بالأرض كلها لا تستقر ، حتى أتت الحرم فلم تدخله ، ثم انتهت آخر الأمر إلى الجودي ، فاستوت عليه(٢) .

ويحتجون على ذلك بالآيات الكريمة « وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا» (٣) ، وقوله تعالى : « قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين »(٤) ، وقوله تعالى « وجعلنا ذريته هم الباقين» (٥) . وقوله تعالى : « فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون ، ثم أغرقنا بعد الباقين» (٦) وقول الحبيب المصطفى ، سيدنا ومولانا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « أول رسول أرسل

---

(١) تكوين ١١ : ١-٩ وكذلك كتابنا إسرائيل ص ١١٧ وكذلك J. Gray, op. cit., P. 104. وكذلك عصام حفني : المرجع السابق ص ٤٢ .
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ص ١٦٣ ، وكذلك ابن الأثير : المرجع السابق ص ٧٢ .
(٣) سورة نوح : آية ٢٦ ، ٢٧ .
(٤) سورة هود : آية ٤٠ .
(٥) سورة الصافات : آية ٧٧ .
(٦) سورة الشعراء : آية ١١٩ ، ١٢٠ .

نوح ، وأرسل إلى جميع أهل الأرض ، فلذلك لما كفروا أغرق الله أهل الأرض جميعاً»(١) .

وهناك رأي آخر يتجه إلى أن الطوفان كان محليا في المنطقة التي كان يعيش فيها نوح وقومه ، وأما بقية بقاع الأرض فلم يعمها هذا الطوفان(٢) .

وإنني لأظن – وليس كل الظن إثماً – أن الطوفان كان خاصا بقوم نوح دون سواهم من العالمين ، معتمداً في ذلك على أدلة كثيرة ، منها (أولاً) أن كل آيات القرآن الكريم تنص – دونما لبس أو غموض – على أن نوحاً إنما أرسل إلى قومه خاصة ، ومن ذلك قوله تعالى « لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ، قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين ، قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون ، أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون»(٣) ، وقوله تعالى : « ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات ، فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »(٤) ، وقوله تعالى : « واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت» (٥) وقوله تعالى : « ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنه لكم نذير مبين ، أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ، فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ، قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ، ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجري إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا

---

(١) القرطبي : المرجع السابق ص ٦٧٧٧ .
(٢) عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ص ٣٦ .
(٣) سورة الأعراف : آيات ٥٩–٦٣ .
(٤) سورة التوبة : آية ٧٠ .
(٥) سورة يونس آية ٧١ .

ربهم ولكني أراكم قوماً تجهلون ، ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون» (١) وقوله تعالى : « وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون » (٢) ، وقوله تعالى : « ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات » (٣) ، وقوله تعالى : « ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ، فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ، ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين » (٤) ، وقوله تعالى : « كذبت قوم نوح المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون » (٥) ، وقوله تعالى : « قال ربي إن قومي كذبون ، فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجني ومن معي من المؤمنين » (٦) وقوله تعالى : « ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون » (٧) ، وقوله تعالى : « وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوماً فاسقين » (٨) ، وقوله تعالى : « وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى »(٩) ، وقوله تعالى : « كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر»(١٠) ، وقوله تعالى : « إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه ، أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم ، قال يا قوم إني لكم نذير مبين »(١١) ، وقوله تعالى : « قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا»(١٢) . . . إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي تؤكد كل التأكيد أن دعوة نوح إنما كانت لقومه خاصة — شأنه في ذلك شأن غيره من المصطفين الأخيار ، غير الحبيب المصطفى — صلوات الله وسلامه عليه — .

---

(١) سورة هود : آيات ٢٥-٣٠ .
(٢) سورة هود : آية ٣٦ .
(٣) سورة إبراهيم : آية ٩ .
(٤) سورة المؤمنون : آية ٢٣ ، ٢٤ .
(٥) سورة الشعراء : آية ١٠٥ ، ١٠٦ .
(٦) سورة الشعراء : آية ١١٧ ، ١١٨ .
(٧) سورة العنكبوت : آية ١٤ .
(٨) سورة الذاريات : آية ٤٦ .
(٩) سورة النجم : آية ٥٢ .
(١٠) سورة القمر : آية ٩ .
(١١) سورة نوح : آية ١ ، ٢ .
(١٢) سورة نوح : آية ٥ .

ومنها (ثانياً) أن هناك اتفاقاً عاماً على أن الرسل جميعاً قد أرسلوا إلى قومهم خاصة ، باستثناء حبيب الله محمد — صلى الله عليه وسلم — وهكذا يحكي القرآن الكريم عن رسالات الأنبياء السابقين على سيدنا محمد — عليه الصلاة والسلام — بعنوان القومية الخاصة ، يقول الله سبحانه وتعالى : « كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد ، وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب ، إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب» (١) ، وقوله تعالى : « مثل دأب قوم نوح وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلماً للعباد »(٢) ، وقوله تعالى : « كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود ، وعاد وفرعون وإخوان لوط ، وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد »(٣) ، وقوله تعالى : « وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره »(٤) ، وقوله تعالى : « ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين » (٥) ، وقوله تعالى : « ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ، وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين» (٦) ، وقوله تعالى : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ، وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم »(٧) ، وقوله تعالى عن عيسى عليه السلام : « ورسولاً إلى بني إسرائيل »(٨) .

ومنها (ثالثاً) أن النبي الوحيد من بين الأنبياء جميعاً الذي قد أرسله الله إلى الناس كافة هوسيدنا ومولانا محمد — صلى الله عليه وسلم — وقد دلّ القرآن على عالمية الدعوة

---

(١) سورة ص : آيات ١٢-١٤ .
(٢) سورة غافر : آية ٣١ .
(٣) سورة ق آيات ١٢-١٤ .
(٤) سورة الأعراف : آية ٧٣ .
(٥) سورة الأعراف : آية ٨٠ .
(٦) سورة الأعراف : آية ١٠٣ ، ١٠٤ .
(٧) سورة إبراهيم : آية ٥،٦ .
(٨) سورة آل عمران : آية ٤٩ .

المحمدية بأساليب متعددة في نصوص واضحة (١) ، بل إن هناك أكثر من أربعين آية في القرآن الكريم يذكر فيها الله سبحانه وتعالى باسم رب العالمين ، هذا عدا الآيات التي ذكر فيها بالنص الواضح أنه — صلوات الله عليه وسلامه عليه — قد أرسل إلى الناس كافة ، وأن القرآن قد تنزل عليه ليقرأه على الناس كافة (٢) ، ومن ذلك قوله تعالى : « وأرسلناك للناس رسولاً وكفى بالله شهيداً » (٣) ، وقوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »(٤) ، وقوله تعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون »(٥) ، وقوله تعالى : « آلر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد » (٦) ، وقوله تعالى : « تبارك الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً »(٧)، وقوله تعالى : « قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً »(٨) ، وقوله تعالى : « قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين »(٩) ، وقوله تعالى : « هـــذا بلاغ للناس ولينذروا به »(١٠)، وقوله تعالى : « إن هو إلا ذكر للعالمين»(١١) ، ثم هناك قوله تعالى : « قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال ، الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار» (١٢) ، فمن يقرأ وصف هؤلاء العباد الذين سخر لهم

---

(١) راجع في ذلك البحث الرائع لفضيلة الشيخ مناع القطان تحت عنوان « الإسلام شريعة الله الخالدة إلى البشرية كافة » في مجلة كلية الشريعة العدد الخامس ص ١١–٤٠ .

(٢) انظر المجلة الإنجليزية (History Today) يونية ١٩٦١ ، وكذا عباس العقاد : المرجع السابق ص ١٥٧ .

(٣) سورة النساء : آية ٤٩ .

(٤) سورة الأنبياء : آية ١٠٧ .

(٥) سورة سبأ : آية ٢٨ .

(٦) سورة إبراهيم : آية ١ .

(٧) سورة الفرقان : آية ١ .

(٨) سورة الأعراف : آية ١٥٨ .

(٩) سورة الحج : آية ٤٩ .

(١٠) سورة إبراهيم : آية ٥٢ .

(١١) سورة ص : آية ٨٧ .

(١٢) سورة إبراهيم : آيات ٣١–٣٣ .

البحر وسخر لهم الأنهار وسخر لهم الليل والنهار ، لا يخطر له لحظة أنهم أبناء الجزيرة العربية دون غيرهم من بني الإنسان في جميع البلدان (١)، وأخيراً فليس هناك من يشك أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هو خاتم النبيين « ماكانَ محمَّدٌ أبا أحدٍ مِن رِجالكم ولكن رَّسولَ الله وخاتَمَ النبيين »(٢) ، وبالتالي فإن دعوته لن تكون - بحال من الأحوال - مقصورة على قوم دون آخرين ، ومن ثم كانت عالمية الدعوة الإسلامية .

ومنها (رابعاً) أن السنة الشريفة تتفق مع القرآن الكريم على عالمية الدعوة المحمدية ، وأن تلك ميزة الحبيب المصطفى - صلوات الله وسلامه عليه - على غيره من أنبياء الله الكرام الذين كانت دعواتهم مقصورة على أقوامهم دون غيرهم من العالمين ، يقول - صلى الله عليه وسلم - كما جاء في الصحيحين « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي ، نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » ، وعن أبي موسى الأشعري أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « والذي نفسي بيده لا يسمع بي رجل من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ، ثم لا يؤمن بي ، إلا دخل النار » ، ويذهب سعيد بن جبير إلى أن تصديق ذلك في كتاب الله تعالى : « وَمَن يكفُرْ بهِ منَ الأحزابِ فالنارُ مَوْعِدُه »(٣) .

ومنها (خامساً) أن قول أهل الموقف لنوح - كما في حديث الشفاعة - أنت أول رسول إلى أهل الأرض ، ليس المراد به عموم بعثه ، بل إثبات أولية إرساله (٤)، ومن ثم فإن نوحاً - عليه السلام -هو أول رسول أرسله الله تعالى إلى قوم مشركين ، هم قومه(٥) .

---

(١) عباس العقاد : المرجع السابق ص ١٦٠ .

(٢) سورة الأحزاب : آية ٤٠ .

(٣) راجع في ذلك : مجموعة فتاوي شيخ الإسلام أحمد بن تيمية : الجزء الرابع ص ٢٠٣-٢٠٨ ، جـ١١ ص ١٦٩-١٧٠ ، جـ١٩ ، ص ٩-١٢ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، الرياض ١٣٨١-١٣٨٢ هـ ، وكذلك مناع القطان : المرجع السابق ص ٢٠-٢١ ، وكذلك صحيح البخاري .

(٤) محمد رشيد رضا : تفسير المنار جـ٧ ص ٥٠٣ .

(٥) نفس المرجع السابق جـ٨ ، ص ٤٣٦ .

ومنها (سادساً) أن مبلغ علمي — وأنا واحد من عامة المسلمين لم يكتب له شرف التخصص في الدراسات القرآنية — أن القاعدة الشرعية التي جاء بها القرآن الكريم هي ألا يعذب الله قوماً إلا إذا أرسل إليهم رسولاً يهديهم سواء السبيل ، تصديقاً لقوله تعالى : « وما كنا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رسولا » (١)، فإذا افترضنا أن نوحاً —عليه السلام— كان في جنوب العراق — كما هو المتواتر ، أو الذى يميل إليه أغلب الباحثين على الأقل فكيف يعذب الله — وهو أعدل العادلين — المصريين أو السوريين أو سكان الجزيرة العربية ، على سبيل المثال ، بسبب كفر العراقيين بنوح وبدينه القويم بخاصة وأن القرآن الكريم يقول : « مما خَطِيئَاتِهِم أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً فلم يجدوا لهم مِّن دون الله أنصارا »(٢)، وهذا يعني أن الذين أغرقوا ، إنما بسبب خطيئتهم في حق نوح وكفرهم بدعوته ، بل إن القرآن الكريم ليصرح — دونما لبس أو غموض — بأنهم قد عصوا نوحاً حقيقة ، يقول الله سبحانه وتعالى : « قال ربِّ إنهم عصوني » ، وأنهم لم يتركوا وثنيتهم الضالة المضلة إلى عبادة الله الواحد القهار ، فإذا كان الطوفان عاما ، فلا بد أن تكون دعوة نوح بالتالي عامة ، وهذا يتعارض مع مبادئ الإسلام الأساسية ، فضلاً عن معارضته لآيات من القرآن الكريم ، ومن ثم فلا بد أن تكون الدعوة خاصة ، وأن الذين أغرقوا كانوا من الخاطئين ، أو كما يقول ابن كثير « اجتمع عليهم خطاياهم من كفرهم وفجورهم ودعوة نبيهم عليهم » ، ثم هناك قوله تعالى : « وأُوحِيَ إلى نوح أنه لن يُؤْمِنَ قومك إلا من قد آمن »(٣) ، أليس في هذه الآية الكريمة دليل على أن الكافرين ، إنما كانوا من قوم نوح فحسب ، وأن الفلك التي ستبنى إنما هي لإنقاذ المؤمنين من قومه ، وإغراق الكافرين منهم ، ثم أليس في قوله تعالى : « وَيَصْنَعُ الفُلْكَ وكلما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه ، قال إن تَسْخَروا منّا فإنا نَسْخَرُ منكم كما تَسْخَرُون »(٤) دليل على أن الساخرين من نوح كانوا من قومه ، وأنهم هم أنفسهم الكافرون به ، والأمر كذلك بالنسبة إلى قوله تعالى : « قال ربِّ انصُرني بِمَا كَذَّبُون »(٥)، وقوله تعالى : « فإذا

(١) سورة الإسراء : آية ١٥ .
(٢) سورة نوح : آية ٢٥ .
(٣) سورة هود : آية ٣٦ .
(٤) سورة هود : آية ٣٨ .
(٥) سورة المؤمنون : آية ٢٦ .

استويتَ أنت ومن معك على الفُلك فقُل الحمدُ لله الذي نجّانا من القوم الظالمين» (١)، وقوله تعالى : «فكذّبوه فنجيناه ومن معه في الفُلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبةُ المنذَرين» ، (٢)وكل هذه الآيات وغيرها تضغط بشدة على أن الذين أغرقوا إنما كانوا من المكذبين لسيدنا نوح عليه السلام ، بل إن الآية الأخيرة لتشير بوضوح إلى أن ما حدث لهم كان بعد إنذارهم « فانظر كيف كان عاقبة المنذرين » تصديقاً لقوله تعالى « وما كنا معذّبينَ حتى نبعثَ رسولاً ». (٣)

ومنها (سابعاً) أن الله سبحانه وتعالى رحمة منه بالعالمين ، أنه ما من أمة إلا وجاء أهلها رسول من عند الله العليّ القدير ، «ولقدْ بعثنا في كلّ أمة رسولا» (٤) ، بل إنه لمن أصول العقائد الإسلامية أنه يجب الإيمان بأن الله أرسل في كل الأمم رسلاً(٥) ، يقول سبحانه وتعالى : «وإن مِن أمة إلا خلا فيها نذير»(٦) ، ويقول : « وكمْ أرسلنا مِنْ نبيّ في الأولين »(٧)، « منهم من قصصْنا عليك ومنهم من لم نقصُصْ عليك » (٨) ، « ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصُصْهم عليك » (٩) ، ومن هنا كان الخلاف على عدد الأنبياء عليهم السلام ، فمن قائل إنهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ، ومن قائل إنهم ثمانية آلاف نبي ، ومن قائل إنهم ثلاثة آلاف . . . إلخ(١٠) .

ومنها (ثامناً) أن حديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، الذي يحتج به على أن الله

---

(١) سورة المؤمنون : آية ٢٨ .
(٢) سورة يونس : آية ٧٣ .
(٣) سورة الإسراء : آية ١٥ .
(٤) سورة النحل : آية ٣٦ .
(٥) محمد رشيد رضا : تفسير المنار جـ٧ ، ص ٥٠٠ .
(٦) سورة فاطر : آية ٢٤ .
(٧) سورة الزخرف : آية ٦ .
(٨) سورة غافر : آية ٧٨ .
(٩) سورة النساء : آية ١٦٤ .
(١٠) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم جـ٢ ص ٤٢٢-٤٢٨ ، وكذلك القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ص ٢٠١٤-٢٠١٥ ، وكذلك محمود الشرقاوي : الأنبياء في القرآن الكريم ، وكذلك كتابنا إسرائيل ص ٢٨٨-٢٨٩ .

لم يرحم أحداً من طوفان نوح حتى الأطفال ، أنه نفسه – فيما أظن – دليل على أن الغارقين إنما كانوا من قوم نوح ، وليس من كل بقاع الأرض ، ولنقرأ الحديث الشريف – حيث التركيز على كلمة قوم – « فلو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم أم الصبي » .

ومنها (تاسعاً) أن الذين ينادون بعالمية الطوفان (١) هم أنفسهم الذين يرون أن الفترة ما بين آدم ونوح عليهما السلام ، تقارب عشرة قرون ، فإذا كان المراد بالقرن مائة سنة – كما هو معروف – فبينهما ألف سنة ، وإن كان المراد بالقرن الجيل من الناس ، فقد كان الجيل قبل نوح يعمرون الدهور الطويلة ، فعلى هذا يكون بين آدم ونوح ألوف من السنين ، بل إن بعضهم يذهب إلى أنه ما كان في زمن نوح شبر من الأرض إلا وهناك إنسان يدعيه ، وهناك رواية تنسب إلى الإمام مالك – عن زيد بن أسلم – أن أهل ذلك الزمان قد ملأوا السهل والجبل ، فهل يتفق ذلك مع رأي آخر لهم هو أن العالم كان في تلك الفترة قليل السكان بدرجة يستطيع أن يبلغ فيها دعوته للناس كافة ، وبالتالي فإن الكافرين به قد انتشروا في كل أنحاء المعمورة ، مما يستدعي أن يكون الطوفان عاماً ، ثم إن فكرة العشرة الأجيال أو القرون هذه من أين جاءوا بها ؟ بل وزادت رواية على ذلك بأنهم جميعاً كانوا على الإسلام .

ثم ما علاقة ذلك بفكرة العشرة الأجيال ، أو رؤساء الآباء ، ما بين آدم ونوح التي جاءت في التوراة (٢) ، بل ما علاقة الأخيرة بالعشرة الحكام الذين سبقوا الطوفان ، كما يقدمهم المؤرخ البابلي بيروسوس (٣) ؟

ومنها (عاشراً) أن الرواية التي تذهب إلى أن الطوفان قد حدث في العام الستمائة من حياة نوح – وتلك للعلم منقولة عن التوراة (٤) – وفي عام ٢٢٥٦ بعد هبوط آدم

---

(١) القرطبي : المرجع السابق ص ٣٢٥٩ ، وكذلك الطبري : المرجع السابق ص ١٧٨ ، ١٩٠ ، وكذلك ابن كثير : البداية والنهاية ص ١٠١ .

(٢) تكوين ٥ : ٥–٣٢ ، وهم كالآتي : آدم وعاش ٩٣٠ سنة ، وشيث وعاش ٩١٢ سنة ، وأنوش وعاش ٩٠٥ سنة ، وقينان وعاش ٩١٠ سنة ، ومهالئيل وعاش ٨٩٥ سنة ، ويارد وعاش ٩٦٢ سنة ، وأخنوخ وعاش ٣٦٥ سنة ، ومتوشالح وعاش ٩٦٩ سنة ، ولامك وعاش ٥٩٥ سنة ، ونوح وعاش ٩٥٠ سنة .

(٣) J. Finegan, op. cit., P. 30. وكذا G.A. Barton, op. cit., P. 320

(٤) تكوين ٧ : ٦ .

إلى الأرض ، ألا تكفي كل هذه السنين لإيجاد أقوام غير قوم نوح في هذه الدنيا ؟ أم أن الأمر كان مقصوراً على قوم نوح ؟

وإذا كان طوفان نوح قد حدث في الفترة التي تسبق بداية العصر التاريخي في العراق القديم ، والتي يرى علماء الآثار أنها قد حدثت في حوالي عام ٢٧٠٠ ق.م(١) ، فإن عصور ما قبل الطوفان تزيد بآلاف السنين عما قدره علماء التوراة ، ونقله عنهم أصحاب هذه الروايات .

ومنها (حادي عشر) أن الله سبحانه وتعالى يقول في القرآن الكريم « قيل يا نوح اهبِطْ بسلامٍ مِنّا وبركاتٍ عليك وعلى أُممٍ مِمَّن مَعَك وأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثم يَمَسُّهُمْ منا عذابٌ أليم » (٢) ، ألا يفهم من قوله تعالى « أمم ممن معك ، وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم » أن هناك آخرين لم يشملهم طوفان نوح ، وأن الله سبحانه وتعالى سيمتعهم إلى حين ، ثم يمسهم عذاب أليم ؟ .

ومنها (ثاني عشر) أن المفسرين والمؤرخين الإسلاميين أنفسهم يكادون يجمعون على أن الطوفان إنما بدأ وانتهى في العراق القديم ، فهناك رواية مجاهد والشعبي التي تذهب إلى أن التنور إنما كان بأرض الكوفة ، ورواية قتادة من أنه كان بأرض الجزيرة ، فضلاً عن رواية ثالثة تذهب إلى أن سفينة نوح قد بدأت رحلتها من « عين وردة » ، وعين وردة هذه ــ كما يقول ياقوت الحموي ــ رأس عين المدينة المشهورة في الجزيرة(٣)، فإذا أضفنا إلى ذلك ما جاء في القرآن الكريم من أن سفينة نوح قد استوت على الجودي ــ والجودي جبل يقع شرق جزيرة ابن عمر إلى جانب دجلة عند الموصل ــ فإذا كانت كل هذه الأماكن التي ذكرت إنما تقع في العراق ، فمن البديهي أن رحلة سفينة نوح إنما بدأت وانتهت في العراق .

---

(١) G. Roux, Ancient Iraq, 1966, P. 119–120. وكذلك -
Sir Leonard Woolley, Excavations At Ur, P. 16.

(٢) سورة هود : آية ٤٨ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ص ١١١ ، وكذلك ابن الأثير : المرجع السابق ص ٧٠ وكذلك الطبري : المرجع السابق ص ١٩٠ .

ومنها (ثالث عشر) أن صاحب « تفسير جزء تبارك » يتجه إلى أن مسألة شمول الطوفان لجميع أقسام الأرض ، وعدم شموله لم يرد عنها في الكتاب نص قطعي ، وكلمة أرض في قوله تعالى : «وقيلَ يا أرضُ ابلعي ماءك » ليست نصا في الدلالة على جميع أجزاء سطح الأرض ، وإنما هي تستعمل أحياناً كثيرة استعمالاً فصيحاً في الجهة الواحدة من جهات الأرض ، ففي سورة يوسف « قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظٌ عليم » ، « وكذلك مكنّا ليوسفَ في الأرض يتبوأُ منها حيثُ يشاء » ، والمراد بالأرض في الموضعين « أرض مصر » ، لا الكرة الأرضية كلها ، وليس هذا مماراة منا في قدرة الله أن يعم سطح الأرض كلها بالطوفان ، وإنمـــا يجب أن نقف في العقائد خاصة على ما جاء في صحيح النقل وارتاح إليه العقل(١) .

ومنها (رابع عشر) أن صاحبي « تفسير الجلالين » يتجهان في تفسيرهما لقوله تعالى : « وإن فرعون لعالٍ في الأرض »(٢) إلى أن الأرض هنا هي أرض مصر (٣) .

ومنها (خامس عشر) أن صاحب « تفسير جزء تبارك » يتجه في تفسير قوله تعالى : « ربِّ اغفرْ لي ولوالديَّ ولمن دَخَلَ بيتيَ مؤمناً وللمؤمنين والمؤمناتِ ولا تَزِدِ الظالمين إلا تَبَارا»(٤) إلى أن نوحاً عليه السلام ختم دعاءه بالدعاء للمؤمنين والمؤمنات جملة واحدة ، ويومئْ هذا من طرف خفي إلى أن هناك مؤمنين ومؤمنات غير جماعة بيته الذين نجو معه في السفينة ، وعلى هذا فالطوفان لم يعم الأرض كلها ، ويكون في بعض جهاتها البعيدة مؤمنون ومؤمنات لم يغرقوا ، وقد دعا لهم نوح مع أهل بيته المذكورين(٥) .

ومنها (سادس عشر) أن هناك جماعة من أهل فارس والهند – كما يروي المؤرخون الإسلاميون – يرون أن الطوفان كان خاصا ، وأنه كان ببابل ومجاوراتها ، ولم يصل إليهم ، وأن تاريخ الملك عندهم يمتد في الماضي إلى تاريخ أبعد من الذي قدرته التوراة

---

(١) عبد القادر المغربي : تفسير جزء تبارك ، المطبعة الأميرية – القاهرة ١٩٤٧ م ص ١٣٩ .
(٢) سورة يونس : آية ٨٣ .
(٣) جلال الدين المحلي ، وجلال الدين السيوطي : تفسير الجلالين ، دار الشعب – القاهرة ١٩٧٠ ص ١٩٣ .
(٤) سورة نوح : آية ٢٨ .
(٥) عبد القادر المغربي : تفسير جزء تبارك . ص ١٤٣ .

لطوفان نوح ، وأن عمرانهم متصل من أعمق أجيال التاريخ إلى اليوم(١) .

ومنها (سابع عشر) أن الآثار تثبت ، دونما ريب ، أن هناك طوفاناً — بل طوفانات — حدثت في العراق القديم ، ومن ثم فإن الأثريين يكادون يتفقون — وعلى رأسهم سير وليم ويلكوكس ، وسير ليونارد وولي — على أن الطوفان لم يشمل الكرة الأرضية كلها ، وإنما كان طوفاناً كبيراً على وادي دجلة والفرات أغرق كل الأرض الصالحة للسكنى في هذه المنطقة بين الجبال والصحراء ، والتي هي في نظر سكان المنطقة — وبخاصة في تلك الفترة المبكرة — بمثابة العالم كله ، وتقدر المساحة التي شملها الطوفان — في نظر بعض علماء الآثار — بحوالي ٤٠٠ ميل طولاً (حوالي ٦٥٠ كيلومتراً) في ١٠٠ ميل عرضاً (حوالي ١٥٠ كيلومتر) ، وكان ذلك كافياً لأن يغمر الوادي كله ، إذ بلغ ٤٠ ألف ميل مربع ، ورغم أن أحداً لم يستطع حتى الآن أن يحدد زمن الطوفان تحديداً تاما ، إلا أن هناك من يرى أنه ربما يرجع إلى قرب نهاية « عصر جمدة نصر » ، أي قبيل بداية الألف الثالثة ق.م(٢) .

وبعد : فهذه هي « قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة » ، ولعل مما يلفت النظر أنها جميعاً تتفق على أن القوم قد انحرفوا عن سواء السبيل ، ومن ثم فقد كان قضاء الله العادل في صورة طوفان أهلك الحرث والنسل ، ولم تكتب النجاة من عقاب الله لأحد ، إلا بطل القصة والذين معه ، وهو الذي اتفقت الروايات جميعاً على أنه كان بارا تقيا ورعاً ، ولكن هناك خلافات جوهرية بين النص القرآني وبين غيره من النصوص — سواء كانت تلك النصوص بشرية كنص سومر وبابل ، أو نصوصاً يزعم لها أصحابها ما يزعمون من قداسة كنص التوراة — .

ومن هذه الاختلافات (أولاً) أن النص القرآني كان هو النص الوحيد الذي حدثنا

(١) عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ص ٣٦ وكذلك ابن كثير : البداية والنهاية ص ١١٨— ، وكذلك ابن الأثير : المرجع السابق ص ٧٣ ، وكذلك الطبري : المرجع السابق ص ١٩٢

(٢) S.L. Woolley, Excavations At Ur, P. 36, Ur of the Chaldees, 1950, P 22F

وكذلك W. Keller, op. cit., P. 50-51. ، وكذلك محمد عبد القادر : المرجع السابق ص ٩٥ ، وكذلك عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ص ١٢ .

أن نوحاً كان رسولاً من رب العالمين ، وأنه قضى من الزمن ما شاء الله له أن يقضي في دعوة قومه إلى عبادة الله الواحد القهار ، وأن الله - جل وعلا - لم يأت بالطوفان إلا بعد أن تحمل النبي الكريم في دعوته كل صنوف الأذى والاضطهاد ، وإلا بعد أن جرّب النبي الكريم كل سبل الإقناع ، دونما أية نتيجة ، « قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ، فلم يزدهم دعائي إلا فراراً ، وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً ، ثم إني دعوتهم جهاراً ، ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً ، فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا »(١) ، وإلا بعد أن يئس النبي الكريم من أن يؤمن به قومه ، فدعا « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا» (٢) ، وإلا بعد أن أوحى الله إليه « أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن» (٣) ، وهكذا اتبع نبي الله الكريم كل ما يمكن اتباعه تصديقاً لقوله تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً »(٤) .

ومنها (ثانياً) أن الناجين من الطوفان في القصة القرآنية ، إنما نجوا لأنهم آمنوا بالله العزيز الحكيم ، وصدقوا بدعوة نوح عليه السلام ، بعكس النصوص الأخرى التي جعلت نجاتهم ، إنما ترجع إلى أنهم من أهل بطل القصة وذوي قرباه ، ويزيد القرآن الكريم الأمر وضوحاً في هذه النقطة بالذات ، فيقص علينا - من بين ما يقص من أحداث - ما حدث مع ابن نوح ، وكيف كان من الغارقين ، ثم كيف « نادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين ، قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح ، فلا تسألنِ ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين ، قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين» (٥) . وهكذا يبدو واضحاً المبدأ القرآني العظيم « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد » ، « ولا تزر وازرة وزر أخرى » ، « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره »(٦) .

(١) سورة نوح : آيات ٥-١٠ .
(٢) سورة نوح : آية ٢٦ ، ٢٧ .
(٣) سورة هود : آية ٣٦ .
(٤) سورة الإسراء : آية ١٥ .
(٥) سورة هود : آيات ٤٥-٤٧ .
(٦) سورة الزلزلة : آية ٧ ، ٨ .

ومنها (ثالثاً) أن زوجة بطل القصة في النصوص السومرية والبابلية — وكذا في نص التوراة — تنجو من الطوفان مع الناجين ، ولكن القرآن الكريم كان وحده هو الذي أخبرنا أن زوج النبي الكريم لم تكن من المؤمنين به « ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين »(١) ، ولا شأن لنا بروايات ذهبت إلى غير ما ذهب إليه النص القرآني الكريم ، فإنما هي اجتهادات على مسئولية أصحابها ، وهي قبل ذلك باطلة لمخالفتها للقرآن الكريم .

ومنها (رابعاً) أن النص القرآني هو النص الوحيد الذي يتفق إلى حد كبير — مع الفارق الشاسع بين ما أنزله الله وما كتبته أيدي البشر — مع أقدم نصوص قصة الطوفان في أن الطوفان إنما بدأ وانتهى — أو على الأقل انتهى — في العراق ، وذلك حين « غيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودى » .

ومنها (خامساً) أن النص القرآني هو النص الوحيد الذي تسامى عن مهاوي الشرك وضلال الوثنية ، فهو في صراحة تامة يذكر أن القوم قد حادوا عن عبادة ربهم وانصرفوا إلى عبادة الأوثان ، وفي كل هذا يقدم لنا وصفاً لله سبحانه وتعالى — بما يتفق ومقام الذات العلية — فلا يتنزل إلى الدرك الأسفل من التفكير الوثني في قصص العراق القديم ، أو يصف الله سبحانه وتعالى بما وصفته التوراة من أوصاف لا يرتضيها عقل ولا يقرها منطق ، بل هي أوصاف لا يرتضيها عقلاء الناس لأنفسهم في كثير من الأحيان .

ومنها (سادساً) أن النص القرآني الكريم هو النص الوحيد الذي تنزه عن التناقض الذي ساد قصة التوراة مثلاً .

ومنها (سابعاً) أن النص القرآني هو الوحيد الذي نزّه الله سبحانه وتعالى عن الندم على إحداث الطوفان ، بعكس النصوص الأخرى التي ذهبت إلى ندم الله — أو الآلهة في النصوص البابلية — على الإتيان بالطوفان ، بل ذهبت التوراة إلى أبعد من ذلك ، حين زعمت أن الله — تعالى عن ذلك علوا كبيرا — قد عزم ألا يحدث طوفاناً بعد ذلك ،

(١) سورة التحريم : آية ١٠ .

وأنه قد وضع علامة هي القوس في السماء ، ليتذكر وعده ، فلا يكون طوفان يغرق الأرض أبداً .

ومنها (ثامناً) أن النص القرآني هو النص الوحيد الذي تنزه عن الماديات ، ذلك أن كلا من النصين — البابلي والتوراتي — يضحي فيه البطل بالأضاحي ، فتشم الآلهة في القصة البابلية ، ويشم الرب في قصة التوراة ، رائحة الشواء فيسكن غضبه ويتنسم رائحة الرضا ، بل إن القرآن الكريم ليرد على فحش يهود هذا — وهم يزعمون أنهم موحدون وأن كتابهم هذا تنزيل من عليّ قدير — بقوله تعالى « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ، ولكن يناله التقوى منكم »(١) ويقول : « فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير » (٢) .

ومنها (تاسعاً) أن النص القرآني هو الوحيد الذي لا تجد فيه نصا قطعيا على أن الطوفان قد شمل الأرض كلها — الأمر الذي ناقشناه من قبل — وإن كانت النصوص السومرية والبابلية ، إنما عنت بالأرض المنطقة التي يسكنها أصحاب الطوفان ، ثم جاءت يهود ، ونقلت ما نقلت من المصادر البابلية ، ثم مزجت ذلك كله بما أنزله الله على موسى عليه السلام ، ثم أخرجت لنا التوراة الحالية التي لا تمثل وحياً من عند الله ، كما أنها لا تمثل الكتابات الإنسانية ، وإنما هي خليط من هذا وذاك ، ومن ثم كانت روايتها أكثر الروايات تعرضاً للخطأ ، فضلا عن أنها لا تقدم لنا رواية سماوية مقدسة تماماً ، ولا وجهة النظر الإنسانية التي فيها ما في الإنسان نفسه من خطأ وصواب ، وإنما هي بين بين .

ومنها (عاشراً) أن النص القرآني هو النص الوحيد الذي لم يعتمد على غيره من المصادر القديمة ، ذلك أن السومريين بعد أن كتبوا روايتهم عن الطوفان ، جاء البابليون من بعدهم ، وأخذوا منها ما أخذوا ، ثم جاءت يهود ونقلت ما نقلت عن الاثنين ، وهكذا كانت كل رواية طوفانية تعتمد على رواية سبقت في التدوين — ولكن الأمر جد مختلف بالنسبة إلى القصة القرآنية ، والتي هي وحي من رب العالمين ، ذلك أنه في القرن السابع الميلادي ، وفي مكة المكرمة ، وفي غار حراء بدأ نزول الوحي على مولانا وسيدنا

---

(١) سورة الحج : آية ٣٧ .

(٢) سورة الحج : آية ٢٨ .

رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بالقرآن الكريم ، ولم يكن رسول الله – عليه الصلاة والسلام – ولا قومه ، على دراية بقصة الطوفان هذه ، وإلى هذا يشير القرآن الكريم « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا » (١) .

ثم أليس كل ما جاء في هذه الدراسة يدل بوضوح على هيمنة القرآن الكريم على غيره من الكتب السماوية – فما بالك بالكتابات الإنسانية – مصداقاً لقوله تعالى ، مخاطباً الحبيب المصطفى – صلوات الله وسلامه عليه – « وأنزلنا إليك الكتاب ، بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه »(٢) ، ثم أليس هو الذي « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد »(٣) .

---

(١) سورة هود : آية ٤٩ .
(٢) سورة المائدة : آية ٤٧ .
(٣) سورة فصلت آية ٤٢

المراجع

أولاً : المراجع العربية

(١) القرآن الكريم

(٢) صحيح البخاري

(٣) التوراة ـ طبعة دار الكتاب المقدس ـ القاهرة ١٩٦٩ .

(٤) إبراهيم خليل : إسرائيل والتلمود ـ القاهرة ١٩٦٧ .

(٥) ابن الأثير (علي بن أحمد بن أبي الكرم) : الكامل في التاريخ ـ الجزء الأول ـ بيروت ١٩٦٥ .

(٦) ابن قتيبة : المعارف (المطبعة الحسينية) ـ القاهرة ١٩٣٤ .

(٧) الإمام ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل عماد الدين) قصص الأنبياء ـ الجزء الأول ـ القاهرة ١٩٦٨ .

(٨) الإمام ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل عماد الدين) البداية والنهاية في التاريخ ـ الجزء الأول ـ القاهرة ١٩٣٢ .

(٩) الإمام ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل عماد الدين) تفسير القرآن العظيم ـ دار الشعب ـ القاهرة ٧١ـ١٩٧٣ .

(١٠) أحمد حسن الباقوري : مع القرآن ـ القاهرة ١٩٧٠ .

(١١) الدكتور أحمد فخري : دراسات في تاريخ الشرق القديم ـ القاهرة ١٩٦٣ .

(١٢) الإمام الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير) تاريخ الرسل والملوك ـ الجزء الأول ـ القاهرة ١٩٦٧ .

(١٣) العمري (شهاب الدين بن فضل الله) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ـ الجزء الأول ـ القاهرة ١٩٢٤ .

(١٤) الإمام القرطبي (أبو عبدالله محمد بن أحمد) الجامع لأحكام القرآن ـ دار الشعب ـ القاهرة ٦٩ـ١٩٧٠ .

(١٥) ابن سعد (محمد بن سعد كاتب الواقدي) الطبقات الكبرى ـ الجزء الأول ـ دار التحرير ـ القاهرة ١٩٦٨ .

(١٦) الإمام جلال الدين المحلي ، الإمام جلال الدين السيوطي : تفسير الجلالين — دار الشعب — القاهرة ١٩٧٠ .
(١٧) حسين ذو الفقار صبري : توراة اليهود — المجلة ، العدد ١٥٧ — القاهرة ١٩٧٠ .
(١٨) حسين ذو الفقار صبري : إله موسى في توراة اليهود — المجلة ، العدد ١٦٣ — القاهرة ١٩٧٠ .
(١٩) الدكتور رشيد الناضوري : جنوب غربي آسيا وشمال أفريقيا — الكتاب الأول — بيروت ١٩٦٨ .
(٢٠) الدكتور رشيد الناضوري : جنوب غربي آسيا وشمال أفريقيا — الكتاب الثالث — بيروت ١٩٦٩ .
(٢١) طه باقر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة — القسم الأول — بغداد ١٩٥٥ .
(٢٢) عباس محمود العقاد : الإسلام دعوة عالمية — القاهرة ١٩٧٠ .
(٢٣) الدكتور عبد الحميد زايد : الشرق الخالد — القاهرة ١٩٦٦ .
(٢٤) الدكتور عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم — الجزء الأول — القاهرة ١٩٦٧ .
(٢٥) عبد القادر المغربي : تفسير جزء تبارك — المطبعة الأميرية — القاهرة ١٩٤٧ .
(٢٦) عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء — القاهرة ١٩٦٦ .
(٢٧) عصام الدين حفني ناصف : محنة التوراة على أيدي اليهود — القاهرة ١٩٦٥ .
(٢٨) الدكتور محمد أبو المحاسن عصفور : معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم — الإسكندرية ١٩٦٨ .
(٢٩) محمد الصادق عرجون : محمد صلى الله عليه وسلم من نبعته إلى بعثته — القاهرة ١٩٧١ .
(٣٠) الدكتور محمد بيومي مهران : دراسات في تاريخ الشرق القديم — الجزء الثاني — إسرائيل — القاهرة ١٩٧٣ .
(٣١) محمد رشيد رضا : تفسير المنار — الهيئة العامة المصرية للكتاب — القاهرة ٧٣— ١٩٧٤ .

(٣٢) الدكتور محمد عبد القادر محمد : قصة الطوفان في أدب بلاد الرافدين ــ القاهرة ١٩٦٥ م .
(٣٣) مناع القطان : الإسلام شريعة الله الخالدة إلى البشرية كافة ــ مجلة كلية الشريعة ــ العدد الخامس ــ الرياض ١٣٩٤ هـ .
(٣٤) محمود الشرقاوي : الأنبياء في القرآن الكريم ــ دار الشعب ــ القاهرة ١٩٧٠ م .
(٣٥) الدكتور نجيب ميخائيل : مصر والشرق الأدنى القديم ــ الجزء السادس ــ الإسكندرية ١٩٦٦ .
(٣٦) ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبدالله) معجم البلدان ــ الجزء الثالث ــ بيروت ١٩٥٥ .
(٣٧) قاموس الكتاب المقدس ــ الجزء الأول ــ بيروت ١٩٦٤ .
(٣٨) قاموس الكتاب المقدس ــ الجزء الثاني ــ بيروت ١٩٦٧ .
(٣٩) مجلة سومر ــ المجلد السابع ــ العدد الأول ــ بغداد ١٩٥١ .
(٤٠) مجموعة فتاوي شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ــ الأجزاء ٤ ، ١١ ، ١٩ ــ الرياض ٨١ــ١٣٨٢ هـ .

ثانياً : المراجع المترجمة إلى اللغة العربية

(٤١) جرني : الحيثيون ، ترجمة الدكتور محمد عبد القادر ــ القاهرة ١٩٦٣ .
(٤٢) جون إلدر : الأحجار تتكلم ، ترجمة الدكتور عزت زكي ــ القاهرة ١٩٦٠ .
(٤٣) جيمس فريزر : الفلكلور في العهد القديم ، ترجمة الدكتورة نبيلة إبراهيم ، مراجعة الدكتور حسن ظاظا ــ القاهرة ١٩٧٢ .
(٤٤) صمويل نوح كريمر : من ألواح سومر ، ترجمة طه باقر ، ومراجعة الدكتور أحمد فخري ــ القاهرة ١٩٥٧ .
(٤٥) صمويل نوح كريمر : أساطير العالم القديم ، ترجمة الدكتور أحمد عبد الحميد ، مراجعة الدكتور عبد المنعم أبو بكر ــ القاهرة ١٩٧٤ .
(٤٦) ول ديورانت : قصة الحضارة ــ الجزء الثاني ــ ترجمة محمد بدران ــ القاهرة ١٩٦١ .

ثالثاً : المراجع الأجنبية

(47) Barton (G.A.) Archaeology and the Bible, 1937.

(48) Barton (G.A.) The Royal Inscriptions of Sumer and Akkad.

(49) Budge (E.A.W.) the Babylonian Story of the Deluge and the Epic of Gilgamesh, 1920.

(50) Caquot (A.) Mythologies des Semites Occidentaux en Mythologies de la Mediterranée au Gange, Paris, 1963.

(51) Cook (S.A.) in the Cambridge Ancient History, III, Cambridge, 1965.

(52) Cornwall (P.B.) on the Location of Dilmun, BASOR, 103, 1946.

(53) Eliade (M.) Cosmos and History, New York, 1959.

(54) Eliade (M.) Traite d'Histoire des Religions, Paris, 1964.

(55) Finegan (J.) Light fiom the Ancient Past, the Archaeological Background of Judaism and Christianity, I, Princeton, 1969.

(56) Frankfort (H.) the Art and Architecture of the Ancient Orient 1954.

(57) Gray (J.), Near Eastern Mythology, N.Y., 1969.

(58) Gurney (O.R.) The Hittites, (Penguin Books) 1969.

(59) Heidel (A.), The Gilgamesh Epic and Old Testament Parallels, 1949.

(60) Hilprecht (H.W.), the Excavations in Assyria and Babylonia, 1903.

(61) Jacolison (Thorkild), The Sumerian King List, A ssyrian Studies, 11, Chicago, 1939.

(62) James (E.O.), Mythes et Rites dans le Proche-Orient Ancien, Paris, 1960.

(63) Keller (W.), The Bible As History (Hodder and Stoughton), 1967.

(64) King (L.W.) Legends Babylon and Egypt in Relation to Hebrew Tradition, 1914.

(65) Kramer (S.N.) Sumerian Mythology, Philadelphia, 1944.

(66) Kramer (S.N.) Dilmun, the Land of the Living, BASoR, 96, 1944.

(67) Kramer (S.N.) The Deluge, in ANET, 1966.

(68) Kramer (S.N.) The Indus Civilization and Dilmun, the Sumerian Paradise Expedition, Philadelphia, 1946.

(69) Kramer (S.N.) from the Tablets of Sumer, 195.

(70) Lambert (W.G.) Babylonian Wisdom Literqture, Oxford, 1960.

(71) Langdon (S.), Semitic Mythology, 1931.

(72) Lioyd (S.), Foundations in the Dust (Pelican), 1955.

(73) Lods (A.), Israel, From the Beginnings to the Middle of the Eighth Century, London, 1962.

(74) Mendenhall (G.), Biblical History in Transition in the Bible and the Ancient Near East.

(75) Nougayrol (J.) et Aynard (J.M.), La Mésopotamie, Paris, 1965.

(76) Oppenheim (A.L.), Babylonian and Assyrian Historical Texts, in ANET, 1966.

(77) Peters (J.P.), Nippur, or Explorations on the Euphrates, 2 vols., 1897.

(78) Roux (G.) Ancient Iraq (Pengyin Books) 1966.

(79) Saggs (H.W.F.), The Creatness that was Babylon, London, 1962.

(80) Sollberger (E.) The Flood, London, 1962.

(81) Speizer (E.A.) The Epic of Gilgamesh, in ANET, 1966.

(82) Speizer (E.A.) The Sumerian Problem, Reviewed.

(83) Thompson (R.C.) The Epic of Gilgamesh, 1930.

(84) Wells (H.G.) A short History of the World (Penguin Books), 1965.

(85) Woolley (S.L.), Ur of the Chaldees, London, 1950.

(86) Woolley (S.L.) Excavations at Ur., London, 1963.

(87) La Sainte Bible (Ecole Biblique de Jerusalem) Paris, 1961.

(88) The Jewish Encyclopaedia, N.Y., 1903.

(89) Unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970.